

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

تفسير سورة النور

هى مدنية ، وآياتها أربع وستون آية . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير قالا : أنزلت سورة النور بالمدينة . وأخرج الحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن عائشة مرفوعا : لا تنزلوهنَّ الغرف ولا تعلموهنَّ الكتابة ، يعنى النساء ، وعلموهنَّ الغزل وسورة النور (١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقى عن مجاهد قال : قال رسول الله ﷺ : « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » (٢) وهو مرسل . وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن حارثة بن مضرب قال : كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) .

السورة فى اللغة اسم للمنزلة الشريفة ، ولذلك سميت السورة من القرآن سورة ، ومنه قول (٣) النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملكٍ دونها يتذبذب

أى منزلة ، قرأ الجمهور : ﴿ سورة ﴾ بالرفع وفيه وجهان : أحدهما : أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف ، أى هذه سورة ، ووجه الزجاج والفراء والمبرد ، قالوا : لأنها نكرة ، ولا يبدأ بالنكرة فى كل موضع . والوجه الثانى : أن يكون مبتدأ وجاز الابتداء بالنكرة لكونها موصوفة

(١) صححه الحاكم ٣٩٦/٢ وقال الذهبى : « بل هو موضوع وأفته عبد الوهاب . قال أبو حاتم : كذاب » والبيهقى فى الشعب (٢٢٢٧) وفى سننه عبد الوهاب بن الضحاك بن أبان كذبه أبو حاتم ، وقال البخارى : « عنده عجائب » وقال النسائى وغيره : « متروك » . وقال الدارقطنى : « منكر الحديث » . الجرح والتعديل ٧٤/٦ والميزان ٦٧٩/٢ .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٢٠٥) وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (٣٧٣١) .

(٣) فى المطبوعة : « قوله زهير » ، والصحيح ما أثبتناه ، كما فى ديوان النابغة ص ٥٧ .

بقوله : ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ والخبر : ﴿الزانية والزاني﴾ ويكون المعنى : السورة المنزلة المفروضة كذا وكذا ، إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها مبدأ ومختتم ، وهذا معنى صحيح ، ولا وجه لما قاله الأولون من تعليل المنع من الابتداء بها كونها نكرة فهي نكرة مخصصة بالصفة ، وهو مجمع على جواز الابتداء بها . وقيل : هي مبتدأ محذوف الخبر على تقدير : فيما أوحينا إليك سورة ، وردّ بأن مقتضى المقام بيان شأن هذه السورة الكريمة ، لا بيان أن في جملة ما أوحى إلى النبي ﷺ سورة شأنها كذا وكذا . وقرأ الحسن بن عبد العزيز وعيسى الثقفي وعيسى الكوفي ومجاهد وأبو حيوه وطلحة بن مصرف بالنصب ، وفيه أوجه : الأول : أنها منصوبة بفعل مقدر غير مفسر بما بعده ، تقديره : اتل سورة ، أو اقرأ سورة . الثاني : أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره ما بعده على ما قيل في باب اشتغال الفعل عن الفاعل بضميره ، أى أنزلنا سورة أنزلناها ، فلا محل لـ ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ هاهنا لأنها جملة مفسرة ، بخلاف الوجه الذى قبله فإنها فى محل نصب على أنها صفة لسورة . الوجه الثالث : أنها منصوبة على الإغراء ، أى دونك سورة ، قاله صاحب الكشاف . ورده أبو حيان بأنه لا يجوز حذف أداة الإغراء . الرابع : أنها منصوبة على الحال من ضمير ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ ، قال الفراء : هي حال من الهاء والالف والحال من المكنى يجوز أن تتقدم عليه ، وعلى هذا فالضمير فى ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ ليس عائدا على ﴿سورة﴾ ، بل على الأحكام ، كأنه قيل : أنزلنا الأحكام حال كونها سورة من سور القرآن . قرأ ابن كثير وأبو عمرو : « وفرضناها » بالتشديد ، وقرأ الباقر بالتخفيف . قال أبو عمرو : فرضناها بالتشديد ، أى قطعناها فى الإنزال نجما نجما . والفرض : القطع ، ويجوز أن يكون التشديد للتكثير أو للمبالغة ، ومعنى التخفيف : أوجبناها وجعلناها مقطوعا بها . وقيل : ألزمتكم العمل بها . وقيل : قدرنا ما فيها من الحدود ، والفرض : التقدير ، ومنه : ﴿ إِنَّ الذى فرض عليك القرآن ﴾ [القصص : ٨٥] (١) .

﴿ وأنزلنا فيها آيات بينات ﴾ أى أنزلنا فى غصونها وتضاعفها ، ومعنى كونها بينات : أنها واضحة الدلالة على مدلولها ، وتكرير ﴿ أنزلنا ﴾ لكمال العناية بإنزال هذه السورة ، لما اشتملت عليه من الأحكام .

﴿ الزانية والزاني ﴾ : هذا شروع فى تفصيل ما أجمل من الآيات البينات ، والارتضاع على الابتداء ، والخبر : ﴿ فاجلدوا كل واحد منهما ﴾ أو على الخبرية لسورة كما تقدم ، والزنا هو : وطء الرجل للمرأة فى فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح . وقيل : هو إيلاج فرج فى فرج مشتهى طبعاً محرم شرعاً ، والزانية هى : المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبئ عنه الصيغة لا المكروهة ، وكذلك الزانى ، ودخول الفاء فى الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط على مذهب الأنفُس ، وأما على مذهب سيبويه فالخبر محذوف ، والتقدير : فيما يتلى عليكم حكم الزانية ، ثم بين ذلك بقوله : ﴿ فاجلدوا ﴾ والجلد : الضرب ، يقال : جلده إذا ضرب جلده ، مثل

(١) وَهَمَّ المصنف فى الاستدلال بالآية ، إذ الفرض فيها بمعنى الإنزال .

بطنه إذا ضرب بطنه ، ورأسه إذا ضرب رأسه . وقوله : ﴿ مائة جلدة ﴾ هو حد الزانى الحر البالغ البكر ، وكذلك الزانية ، وثبت بالسنة زيادة على هذا الجلد ، وهى تغريب عام ، وأما المملوك والمملوكة فجلد كل واحد منهما خمسون جلدة لقوله سبحانه : ﴿ فإن أتى بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ [النساء : ٢٥] . وهذا نص فى الإمام ، وأحق بهن العبيد لعدم الفارق ، وأما من كان محصنا من الأحرار فعليه الرجم بالسنة الصحيحة المتواترة ويجمع أهل العلم ، بل وبالقُرآن المنسوخ لفظه الباقي حكمه وهو : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما آتية » وزاد جماعة من أهل العلم مع الرجم جلد مائة . وقد أوضحنا ما هو الحق فى ذلك فى شرحنا للمنتقى ، وقد مضى الكلام فى حد الزنا مستوفى . وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين فى سورة النساء . وقرأ عيسى بن عمر الثقفى ويحيى بن يعمر وأبو جعفر وأبو شبة : « الزانية والزانى » بالنصب . وقيل : وهو القياس عند سيويه لأنه عنده كقولك : زيدا اضرب . وأما الفراء والمبرد والزجاج فالرفع عندهم أوجه وبه قرأ الجمهور . ووجه تقديم الزانية على الزانى ها هنا ؛ أن الزنا فى ذلك الزمان كان فى النساء أكثر حتى كان لهنّ رايات تنصب على أبوابهن ليعرفهن من أراد الفاحشة منهنّ . وقيل : وجه التقديم أن المرأة هى الأصل فى الفعل . وقيل : لأن الشهوة فيها أكثر وعليها أغلب . وقيل : لأن العار فيهنّ أكثر إذ موضوعهنّ الحجة والصيانة ، فقدّم ذكر الزانية تغليظا واهتماما . والخطاب فى هذه الآية للأئمة ومن قام مقامهم ، وقيل : للمسلمين أجمعين ؛ لأن إقامة الحدود واجبة عليهم جميعا ، والإمام ينوب عنهم ، إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود .

﴿ ولا تأخذكم بهما رافة فى دين الله ﴾ يقال : رأف يرأف رافة على وزن فعلة ، ورأفة على وزن فعالة ، مثل النشأة والنشأة وكلاهما بمعنى الرقة والرحمة . وقيل : هى أرق الرحمة . وقرأ الجمهور : ﴿ رافة ﴾ بسكون الهمزة . وقرأ ابن كثير بفتحةا . وقرأ ابن جريج : « رافة » بالمد كفعالة ، ومعنى ﴿ فى دين الله ﴾ : فى طاعته وحكمه ، كما فى قوله : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ﴾ [يوسف : ٧٦] . ثم قال مثبتا للأمورين ومهيّجا لهم : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ كما تقول للرجل تحضه على أمر : إن كنت رجلا فافعل كذا ، أى إن كنتم تصدّقون بالتوحيد والبعث الذى فيه جزاء الأعمال فلا تعطلوا الحدود ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ أى ليحضره زيادة فى التنكيل بهما وشيوع العار عليهما وإشهار فضيحتهما ، والطائفة : الفرقة التى تكون حافة حول الشئ ، من الطوف ، وأقلّ الطائفة ثلاثة . وقيل : اثنان . وقيل : واحد . وقيل : أربعة . وقيل : عشرة .

ثم ذكر سبحانه شيئا يختص بالزانى والزانية ، فقال : ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ﴾ . قد اختلف أهل العلم فى معنى هذه الآية على أقوال : الأوّل : أن المقصود منها تشنيع الزنا وتشنيع أهله وأنه محرّم على المؤمنين ، ويكون معنى الزانى لا ينكح : الوطء لا العقد ، أى الزانى لا يزنى إلا بزانية ، والزانية لا تزنى إلا بزنان ، وزاد ذكر المشركة والمشرک لكون الشرك

أعمّ في المعاصي من الزنا . وردّ هذا الزجاج وقال : لا يعرف النكاح في كتاب الله إلا بمعنى التزويج ، ويردّ هذا الردّ بأن النكاح بمعنى الوطء ثابت في كتاب الله سبحانه ، ومنه قوله : ﴿ حتى تنكح زوجا غيره ﴾ [البقرة : ٢٣٠] فقد بينه النبي ﷺ ، بأن المراد به : الوطء ، ومن جملة القائلين بأن معنى الزانى لا ينكح إلا زانية : الزانى لا يزنى إلا بزانية سعيد بن جبير وابن عباس وعكرمة ، كما حكاه ابن جرير عنهم ، وحكاها الخطابي عن ابن عباس . القول الثاني : أن الآية هذه نزلت في امرأة خاصة كما سيأتى بيانه ، فتكون خاصة بها كما قاله الخطابي . القول الثالث : أنها نزلت في رجل من المسلمين ، فتكون خاصة به قاله مجاهد . الرابع : أنها نزلت في أهل الصفة ، فتكون خاصة بهم قاله أبو صالح . الخامس : أن المراد بالزانى والزانية : المحدودان حكاه الزجاج وغيره عن الحسن قال : وهذا حكم من الله ، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوج إلا محدودة . وروى نحوه عن إبراهيم النخعي ، وبه قال بعض أصحاب الشافعي . قال ابن العربي : وهذا معنى لا يصح نظرا كما لم يثبت نقلا . السادس : أن الآية هذه منسوخة بقوله سبحانه : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ قال النحاس : وهذا القول عليه أكثر العلماء . القول السابع : أن هذا الحكم مؤسس على الغالب ، والمعنى : أن غالب الزناة لا يرغب إلا في الزواج بزانية مثله ، وغالب الزواني لا يرغب إلا في الزواج بزنان مثلهن ، والمقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا ، وهذا أرجح الأقوال ، وسبب النزول يشهد له كما سيأتى .

وقد اختلف في جواز تزوج الرجل بامرأة قد زنى هو بها ، فقال الشافعي وأبو حنيفة بجواز ذلك . وروى عن ابن عباس ، وروى عن عمر وابن مسعود وجابر أنه لا يجوز . قال ابن مسعود : إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبدا ، وبه قال مالك ، ومعنى ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ أى نكاح الزواني ، لما فيه من التشبه بالفسقة والتعرض للتهمة والطعن في النسب . وقيل : هو مكروه فقط ، وعبر بالتحريم عن كراهة التنزيه مبالغة في الزجر .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ سورة أنزلناها وفرضناها ﴾ قال : بينهاها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عمر ؛ أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجلها وظهرها ، فقلت : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ قال : يا بنى رأيتنى أخذتنى بها رأفة ؟ إن الله لم يأمرنى أن أقتلها ولا أن أجلد رأسها ، وقد أوجعت حيث ضربت (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ قال : الطائفة الرجل فما فوقه . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، وأبو داود في ناسخه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في

سننه ، والضياء المقدسى فى المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ الزانى لا ينكح ﴾ قال : ليس هذا بالنكاح ، ولكن الجماع ، لا يزنى بها حين يزنى إلا زان أو مشرك ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ يعنى : الزنا . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد عن مجاهد فى قوله : ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية ﴾ قال : كنّ نساء فى الجاهلية بغيات ، فكانت منهنّ امرأة جميلة تدعى أمّ جميل ، فكان الرجل من المسلمين يتزوج إحداهنّ لتتفق عليه من كسبها ، فنهى الله سبحانه أن يتزوجهنّ أحد من المسلمين^(١) ، وهو مرسل . وأخرج عبد بن حميد عن سليمان ابن يسار نحوه مختصراً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء عن ابن عباس قال : كانت بغايا آل فلان ، وبغايا آل فلان ، فقال الله : ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية ﴾ الآية ، فأحكم الله ذلك فى أمر الجاهلية^(٢) . وروى نحوه هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد عن الضحاك فى الآية قال : إنما عنى بذلك الزنا ولم يعن به التزويج . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى شيبه عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى هذه الآية قال : الزانى من أهل القبلة لا يزنى إلا بزانية مثله من أهل القبلة أو مشركة من غير أهل القبلة ، والزانية من أهل القبلة لا تزنى إلا بزنان مثلهما من أهل القبلة أو مشرك من غير أهل القبلة ، وحرم الزنا على المؤمنين . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وإلحاقهم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عبد الله بن عمرو قال : كانت امرأة يقال لها أمّ مهزول ، وكانت تسافح وتشتط أن تنفق عليه ، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها ، فأنزل الله : ﴿ الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴾^(٣) .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وإلحاقهم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : كان رجل يقال له : مرثد ، يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة ، وكانت امرأة بغية يقال لها عناق ، وكانت صديقة له ، وذكر قصة وفيها : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أنكح عناقاً ؟ فلم يرد علىّ شيئاً حتى نزلت : ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية ﴾ الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « يا مرثد ، ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة

(١) ابن أبى شيبه ٢٧٣/٤ . (٢) ابن جرير ٥٧/١٨ .

(٣) أحمد ١٥٩/٢ ، ٢٢٥ ، والنسائى فى التفسير (٣٧٩) ، وابن جرير ٥٦/١٨ وصححه إلحاقهم ١٩٣/٢ ، ١٩٤ ، ووافقه الذهبى والبيهقى ١٥٣/٧ .

والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم لك على المؤمنين ﴿١﴾ فلا تنكحها ﴾ (١) . وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن عمرو في الآية قال : كنّ نساء معلومات ، فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوج المرأة منهنّ لتنفق عليه ، فنهاهم الله عن ذلك . وأخرج أبو داود في ناسخه ، وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس ؛ أنها نزلت في بغايا معلنات كنّ في الجاهلية وكن زواني مشركات ، فحرّم الله نكاحهن على المؤمنين .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق شعبة مولى ابن عباس قال : كنت مع ابن عباس فأتاه رجل فقال : إني كنت أتبع امرأة فأصبت منها ما حرّم الله عليّ ، وقد رزقني الله منها توبة فأردت أن أتزوجها ، فقال الناس : الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، فقال ابن عباس : ليس هذا موضع هذه الآية ، إنما كنّ نساء بغايا متعائنات يجعلن على أبوابهنّ رايات يأتيهنّ الناس يعرفنّ بذلك ، فأنزل الله هذه الآية ، تزوجها فما كان فيها من إثم فعلى . وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدى وابن مردويه والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله » (٢) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب ؛ أن رجلا تزوج امرأة ، ثم إنه زنى فأقيم عليه الحدّ ، فجاؤا به إلى عليّ ففرق بينه وبين امرأته ، وقال : لا تتزوج إلا مجلودة مثلك .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ .

قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ : استعار الرمي للشتم بفاحشة الزنا ؛ لكونه جناية بالقول ، كما قال النابغة :

وجرح اللسان كجرح اليد

(١) أبو داود في النكاح (٢٠٥١) والترمذى في التفسير (٣١٧٧) وقال : « حسن غريب » والنسائى ٦٦/٦ وابن جرير ٥٦/١٨ وصححه الحاكم ١٦٦/٢ ووافقه الذهبي والبيهقي ١٥٣/٧ .
(٢) أبو داود في النكاح (٢٠٥٢) وابن عدى ٤١٠/٢ وصححه الحاكم ١٦٦/٢ ووافقه الذهبي .

وقال آخر :

رمانى بأمر كنت عنه ووالدى برىا ومن أجل الطوى رمانى

ويسمى هذا الشتم بهذه الفاحشة الخاصة قذفاً ، والمراد بالمحصنات : النساء ، وخصهن بالذكر لأن قذفهن أشنع والعار فيهن أعظم ، ويلحق الرجال بالنساء فى هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة ، وقد جمعنا فى ذلك رسالة ردنا بها على بعض المتأخرين من علماء القرن الحادى عشر لما نازع فى ذلك . وقيل : إن الآية تعم الرجال والنساء ، والتقدير : والأنفس المحصنات ، ويؤيد هذا قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ والمحصنات من النساء ﴾ [النساء : ٢٤] فإن البيان بكونهن من النساء يشعر بأن لفظ المحصنات يشمل غير النساء وإلا لم يكن للبيان كثير معنى . وقيل : أراد بالمحصنات : الفروج كما قال : ﴿ والتى أحصنت فرجها ﴾ [الأنباء : ٩١] . فتناول الآية الرجال والنساء . وقيل : إن لفظ المحصنات وإن كان للنساء لكنه ها هنا يشمل النساء والرجال تغليبا ، وفيه أن تغليب النساء على الرجال غير معروف فى لغة العرب ، والمراد بالمحصنات هنا : العفاف ، وقد مضى فى سورة النساء ذكر الإحصان وما يحتمله من المعانى ^(١) . وللعلماء فى الشروط المعتبرة فى المقذوف والقاذف أبحاث مطوّلة مستوفاة فى كتب الفقه ، منها ما هو مأخوذ من دليل ، ومنها ما هو مجرد رأى يحت . قرأ الجمهور ﴿ والمحصنات ﴾ بفتح الصاد ، وقرأ يحيى بن وثاب بكسرهما . وذهب الجمهور من العلماء أنه لا حدّ على من قذف كافرا أو كافرة . وقال الزهرى وسعيد بن المسيب وابن أبى ليلى : إنه يجب عليه الحدّ . وذهب الجمهور أيضا أن العبد يجلد أربعين جلدة . وقال ابن مسعود وعمر ابن عبد العزيز وقبيصة : يجلد ثمانين . قال القرطبى : وأجمع العلماء على أن الحرّ لا يجلد للعبد إذا افترى عليه لتباين مرتبتهما ، وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أن من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحدّ يوم القيامة إلا أن يكون كما قال ^(٢) .

ثم ذكر سبحانه شرطا لإقامة الحدّ على من قذف المحصنات فقال : ﴿ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ﴾ أى يشهدون عليهن بوقوع الزنا منهنّ ، ولفظ ثم يدلّ على أنه يجوز أن تكون شهادة الشهود فى غير مجلس القذف ، وبه قال الجمهور ، وخالف فى ذلك مالك ، وظاهر الآية أنه يجوز أن يكون الشهود مجتمعين ومفترقين ، وخالف فى ذلك الحسن ومالك ، وإذا لم تكمل الشهود أربعة ، كانوا قذفة يحدون حد القذف . وقال الحسن والشعبى : إنه لا حد على الشهود ولا على المشهود عليه ، وبه قال أحمد وأبو حنيفة ومحمد بن الحسن . ويردّ ذلك ما وقع فى خلافة عمر رضى الله عنه من جلده للثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالزنا ، ولم يخالف فى

(١) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ والمحصنات من النساء ﴾ [النساء : ٢٤] .

(٢) أحمد ٤٣١/٢ ، ٥٠٠ ، والبخارى فى الحدود (٦٨٥٨) ومسلم فى الإيمان (٣٧/١٦٦٠) والترمذى فى البر

(١٩٤٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وكلهم عن أبى هريرة .

ذلك أحد من الصحابة [رضى الله عنهم] ^(١) قرأ الجمهور : ﴿ بأربعة شهداء ﴾ بإضافة أربعة إلى شهداء ، وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار وأبو زرعة بن عمرو بتنوين أربعة . وقد اختلف فى إعراب شهداء على هذه القراءة ، فقليل : هو تمييز . ورد بأن المميز من ثلاثة إلى عشرة يضاف إليه العدد كذا هو مقرر فى علم النحو . وقيل : إنه فى محل نصب على الحال . ورد بأن الحال لا يجىء من النكرة التى لم تخصص . وقيل : إن شهداء فى محل جر نعتاً لأربعة ، ولما كان فيه ألف التانيث لم ينصرف . وقال النحاس : يجوز أن يكون شهداء فى موضع نصب على المفعولية ، أى ثم لم يحضروا أربعة شهداء ، وقد قوى ابن جنى هذه القراءة ، ويدفع ذلك قول سيبويه : إن تنوين العدد وترك إضافته إنما يجوز فى الشعر .

ثم بين سبحانه ما يجب على القاذف فقال : ﴿ فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾ الجلد : الضرب كما تقدّم ، والمجالد المصاربة فى الجلود أو بالجلود ، ثم استعير للضرب بالعصى والسيف وغيرهما ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

وقد تقدّم بيان الجلد قريبا ، وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر ، وجلدة متصبة على التمييز ، وجملة : ﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ﴾ معطوفة على ﴿ اجلدوا ﴾ أى فاجمعوا لهم بين الأمرين : الجلد ، وترك قبول الشهادة ، لأنهم قد صاروا بالقذف غير عدول بل فسقة كما حرم الله به عليهم فى آخر هذه الآية . واللام فى لهم متعلقة بمحذوف هو حال من شهادة ولو تأخرت عليها لكانت صفة لها ، ومعنى ﴿ أبدا ﴾ : ما داموا فى الحياة . ثم بين سبحانه حكمهم بعد صدور القذف منهم وإصرارهم عليه وعدم رجوعهم إلى التوبة فقال : ﴿ وأولئك هم الفاسقون ﴾ وهذه جملة مستأنفة مقررة لما قبلها . والفسق : هو الخروج عن الطاعة ومجاوزة الحد بالمعصية ، وجوز أبو البقاء أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال .

ثم بين سبحانه أن هذا التأييد لعدم قبول شهادتهم هو مع عدم التوبة فقال : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ وهذه الجملة فى محل نصب على الاستثناء ، لأنه من موجب . وقيل : يجوز أن يكون فى موضع خفض على البدل ، ومعنى التوبة قد تقدّم تحقيقه ، ومعنى ﴿ من بعد ذلك ﴾ من بعد اقترافهم للذنوب القذف . ومعنى ﴿ وأصلحو ﴾ : إصلاح أعمالهم التى من جملتها ذنب القذف ومداركة ذلك بالتوبة والانقياد للحد .

وقد اختلف أهل العلم فى هذا الاستثناء هل يرجع إلى الجملتين قبله ؟ وهى جملة عدم قبول الشهادة ، وجملة الحكم عليهم بالفسق ، أم إلى الجملة الأخيرة ؟ وهذا الاختلاف بعد اتفاقهم على أنه لا يعود إلى جملة الجلد بل يعجل التائب كالمصرّ ، وبعد إجماعهم أيضا على أن هذا الاستثناء يرجع إلى جملة الحكم بالفسق فمحل الخلاف هل يرجع إلى جملة عدم قبول

(١) فى المطبوعة : « عنه » والصحيح ما أثبتناه « رضى الله عنهم » ليست فى المخطوطة ولعلها إضافة مستحدثة .

الشهادة أم لا ؟ فقال الجمهور : إن هذا الاستثناء يرجع إلى الجملتين ، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته وزال عنه الفسق ، لأن سبب ردّها هو ما كان متصفاً به من الفسق بسبب القذف ، فإذا زال بالتوبة بالإجماع كانت الشهادة مقبولة . وقال القاضي شريح وإبراهيم النخعي والحسن البصري وسعيد بن جبير ومكحول وعبد الرحمن بن زيد وسفيان الثوري وأبو حنيفة : إن هذا الاستثناء يعود إلى جملة الحكم بالفسق ، لا إلى جملة عدم قبول الشهادة فيرتفع بالتوبة عن القاذف وصف الفسق ولا تقبل شهادته أبداً . وذهب الشعبي والضحاك إلى التفصيل فقالا : لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان ، فحينئذ تقبل شهادته . وقول الجمهور هو الحق ، لأن تخصيص التقييد بالجملة الأخيرة دون ما قبلها مع كون الكلام واحداً في واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب ، وأولوية الجملة الأخيرة المتصلة بالقيّد بكونه قيّداً لها لا تنفي كونه قيّداً لما قبلها ، غاية الأمر أن تقييد الأخيرة بالقيّد المتصل بها أظهر من تقييد ما قبلها به ، ولهذا كان مجعماً عليه ، وكونه أظهر لا ينافي قوله فيما قبلها ظاهراً . وقد أطال أهل الأصول الكلام في القيد الواقع بعد جمل بما هو معروف عند من يعرف ذلك الفنّ ، والحق هو هذا ، والاحتجاج بما وقع تارة من القيود عائداً إلى جميع الجمل التي قبله ، وتارة إلى بعضها لا تقوم به حجة ولا يصلح للاستدلال ، فإنه قد يكون ذلك لدليل كما وقع هنا من الإجماع على عدم رجوع هذا الاستثناء إلى جملة الجلد . وما يؤيد ما قررناه ويقوّيه أن المانع من قبول الشهادة ، وهو الفسق المتسبب عن القذف قد زال ، فلم يبق ما يوجب الردّ للشهادة .

واختلف العلماء في صورة توبة القاذف ، فقال عمر بن الخطاب والشعبي والضحاك وأهل المدينة : إن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي وقع منه وأقيم عليه الحدّ بسببه . وقالت فرقة منهم مالك وغيره : إن توبته تكون بأن يحسن حاله ، ويصلح عمله ، ويندم على ما فرط منه ، ويستغفر الله من ذلك ، ويعزم على ترك العود إلى مثله ، وإن لم يكذب نفسه ولا رجع عن قوله . ويؤيده هذا الآيات والأحاديث الواردة في التوبة فإنها مطلقة غير مقيدة بمثل هذا القيد .

وقد أجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الذنب ، ولو كان كفراً فتمحو ما هو دون الكفر بالأولى هكذا حكى الإجماع القرطبي ^(١) . قال أبو عبيدة : الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة ، وليس من رمى غيره بالزنا بأعظم جرماً من مرتكب الزنا ، والزاني إذا تاب قبلت شهادته ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن منها قوله : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ﴾ إلى قوله : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ [المائدة : ٣٣ ، ٣٤] . ولا شك أن هذا الاستثناء يرجع إلى الجميع . قال الزجاج : وليس القاذف بأشدّ جرماً من الكافر ، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل

شهادته ، قال : وقوله : ﴿أبدا﴾ أى ما دام قاذفا ، كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبدا ، فإن معناه : ما دام كافراً . انتهى . وجملة : ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ تعليل لما تضمنه الاستثناء من عدم المؤاخذه للقاذف بعد التوبة وصيرورته مغفوراً له ، مرحوماً من الرحمن الرحيم ، غير فاسق ولا مردود الشهادة ، ولا مرفوع العدالة .

ثم ذكر سبحانه بعد ذكره لحكم القذف على العموم حكم نوع من أنواع القذف ، وهو قذف الزوج للمرأة التى تحته بعقد النكاح فقال : ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم﴾ أى لم يكن لهم شهود يشهدون بما رموهن به من الزنا إلا أنفسهم بالرفع على البذل من شهود . قيل : ويجوز النصب على خبر يكن . قال الزجاج : أو على الاستثناء على الوجه المرجوح ﴿فشهادة أحدهم أربع شهادات﴾ قرأ الكوفيون برفع أربع على أنها خبر لقوله : ﴿فشهادة أحدهم﴾ أى فشهادة أحدهم التى تزيل عنه حدّ القذف أربع شهادات . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو : « أربع » بالنصب على المصدر ، ويكون ﴿فشهادة أحدهم﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى فالواجب شهادة أحدهم ، أو مبتدأ محذوف الخبر ، أى فشهادة أحدهم واجبة . وقيل : إن أربع منصوب بتقدير : فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات . وقوله : ﴿بالله﴾ متعلق بشهادة أو بشهادات ، وجملة : ﴿إنه لمن الصادقين﴾ هى المشهود به ، وأصله : على أنه ، فحذف الجار وكسرت إن ، وعلق العامل عنها .

﴿والخامسة﴾ قرأ السبعة وغيرهم الخامسة بالرفع على الابتداء ، وخبرها : ﴿أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة وعاصم فى رواية حفص : « والخامسة » بالنصب على معنى وتشهد الشهادة الخامسة ، ومعنى ﴿إن كان من الكاذبين﴾ : أى فيما رماها به من الزنا . قرأ الجمهور بتشديد ﴿أن﴾ من قوله : ﴿أن لعنة الله﴾ وقرأ نافع بتخفيفها ، فعلى قراءة نافع يكون اسم أن ضمير الشأن ، و ﴿لعنة الله﴾ مبتدأ ، و ﴿عليه﴾ خبره ، والجملة خبر أن ، وعلى قراءة الجمهور تكون ﴿لعنة الله﴾ اسم أن ، قال سيويه : لا تخفف أن فى الكلام وبعدها الأسماء إلا وأنت تريد الثقيلة . وقال الأخفش : لا أعلم الثقيلة إلا أجود فى العربية .

﴿ويدراً عنها العذاب﴾ أى عن المرأة ، والمراد بالعذاب : الدنوى ، وهو الحدّ ، وفاعل يدراً قوله : ﴿أن تشهد أربع شهادات بالله﴾ والمعنى : أنه يدفع عن المرأة الحدّ شهادتها أربع شهادات بالله : أن الزوج لمن الكاذبين ﴿والخامسة﴾ بالنصب عطفاً على أربع ، أى وتشهد الخامسة كذلك قرأ حفص والحسن والسلمى وطلحة والأعمش ، وقرأ الباقون بالرفع على الابتداء ، وخبره : ﴿أن غضب الله عليها إن كان﴾ الزوج ﴿من الصادقين﴾ فيما رماها به من الزنا ، وتخصيص الغضب بالمرأة للتغايط عليها لكونها أصل الفجور ومادته ، ولأن النساء يكثرن اللعن فى العادة ، ومع استكثرهنّ منه لا يكون له فى قلوبهنّ كبير موقع بخلاف الغضب .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ جواب لولا محذوف . قال الزجاج : المعنى ولولا فضل الله لنال الكاذب منهما عذاب عظيم . ثم بين سبحانه كثير توبته على من تاب وعظيم حكمته البالغة فقال : ﴿ وأن الله تواب حكيم ﴾ أى يعود على من تاب إليه ، ورجع عن معاصيه بالتوبة عليه والمغفرة له ، حكيم فيما شرع لعباده من اللعان وفرض عليهم من الحدود .

وقد أخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ قال : تاب الله عليهم من الفسوق ، وأما الشهادة فلا تجوز . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبى بكر : إن تبت قبلت شهادتك . وأخرج ابن مردويه عنه قال : توبتهم إكذابهم أنفسهم ، فإن أكذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : من تاب وأصلح فشهادته فى كتاب الله تقبل . وفى الباب روايات عن التابعين . وقصة قذف المغيرة فى خلافة عمر مروية من طرق معروفة .

وأخرج البخارى والترمذى وابن ماجه عن ابن عباس : أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء ، فقال النبى ﷺ : « البينة ، وإلا حدّ فى ظهرك » ، فقال : يا رسول الله ، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول : « البينة وإلا حدّ فى ظهرك » ، فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحدّ ، ونزل جبريل فأنزل عليه : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ حتى بلغ ﴿ إن كان من الصادقين ﴾ فانصرف النبى ﷺ فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد ، والنبى ﷺ يقول : الله يعلم أن أحكما كاذب فهل منكما تائب ؟ ثم قامت فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا : إنها موجبة ، فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت ، فقال النبى ﷺ : « أبصروها » ، فإن جاءت به أكحل العينين ، سابغ الأليتين ، خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء » ، فجاءت به كذلك ، فقال النبى ﷺ : « لولا ما مضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن »^(١) . وأخرج هذه القصة أبو داود الطيالسى وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد^(٢) وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس مطوكة^(٣) . وأخرجها البخارى ومسلم وغيرهما ، ولم يسموا الرجل ولا المرأة . وفى آخر القصة : أن النبى ﷺ قال له : « اذهب فلا سبيل لك عليها » ، فقال : يا رسول الله مالى ، قال : « لا مال لك ، إن كنت صدقت عليها فهو بما استحلتت من فرجها ،

(١) البخارى فى الشهادات (٢٦٧١) وفى التفسير (٤٧٤٧) وفى الطلاق (٥٣٠٧) والترمذى فى التفسير (٣١٧٩) وابن ماجه فى الطلاق (٢٠٦٧) .

(٢) فى المطبوعة : « عبد حميد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٣) أبو داود الطيالسى (٢٦٦٧) وأحمد ١/٢٧٣ ، ٣/١٤٢ ، وأبو داود فى الطلاق (٢٢٥٤) ، وابن جرير

وإن كنت كذبت عليها فذاك أبعد لك منها » (١) .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدى ، فقال : سل رسول الله ﷺ أرايت رجلا وجد مع امرأته رجلا فقتله ، أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ ، فعاب رسول الله ﷺ السائل ، فقال عويمر : والله لأتينا رسول الله ﷺ لأسأله ، فأتاه فوجده قد أنزل عليه ، فدعا بهما فلاعن بينهما ، قال عويمر : إن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها ، ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ فصارت سنة للمتلاعنين ، فقال رسول الله ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أسحم ، أدعج العينين ، عظيم الألتين ، فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وجرة فلا أراه إلا كاذبا » ، فجاءت به مثل النعت المكروه (٢) . وفى الباب أحاديث كثيرة وفيما ذكرنا كفاية . وأخرج عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب وعلى وابن مسعود ، قالوا : لا يجتمع المتلاعنان أبدا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيَسِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ۝ ﴾

(١) أحمد ٤/٢ والبخارى فى الطلاق (٥٣١١ ، ٥٣١٢ ، ٥٣١٣ ، ٥٣١٤) ومسلم فى اللعان (٥/١٤٩٣)

وأبو داود فى الطلاق (٢٢٥٧) كلهم عن ابن عمر .

(٢) أحمد ٣٣٤/٥ والبخارى فى الطلاق (٥٣٠٨) ومسلم فى اللعان (١/١٤٩٢) وأبو داود فى اللعان (٢٢٤٥)

وابن ماجه فى الطلاق (٢٠٦٦) والدارمى فى النكاح ١٥٠/٢ .

خبر « إن » من قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ ﴾ هو ﴿ عَصِيَّة ﴾ و ﴿ مِنْكُمْ ﴾ صفة لعصية ، وقيل : هو ﴿ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ﴾ ويكون عصية بدلا من فاعل جاؤوا . قال ابن عطية : وهذا أنسق في المعنى وأكثر فائدة من أن يكون الخبر عصية . وجملة : ﴿ لَا تَحْسِبُوهُ ﴾ وإن كانت طلبية ، فجعلها خبرا يصح بتقدير كما في نظائر ذلك . والإفك : أسوأ الكذب وأقبحه ، وهو مأخوذ من أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه . فالإفك : هو الحديث المقلوب . وقيل : هو البهتان . وأجمع المسلمون على أن المراد بما في الآية : ما وقع من الإفك على عائشة أم المؤمنين ، وإنما وصفه الله بأنه إفك ؛ لأن المعروف من حالها رضى الله عنها خلاف ذلك . قال الواحدى : ومعنى القلب فى هذا الحديث الذى جاء به أولئك نفر أن عائشة رضى الله عنها كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة وشرف النسب والسبب لا القذف ، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عن وجهه ، فهو إفك قبيح وكذب ظاهر ، والعصية : هم الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، والمراد بهم : هنا عبد الله بن أبى رَأْس المنافقين ، وزيد بن رفاعه وحسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحمنة بنت جحش ومن ساعدتهم . وقيل : العصية من الثلاثة إلى العشرة . وقيل : من عشرة إلى خمسة عشر . وأصلها فى اللغة : الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض . وجملة : ﴿ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ﴾ إن كانت خبرا لإن فظاهر ، وإن كان الخبر عصية كما تقدّم فهي مستأنفة ، خوطب بها النبى ﷺ وعائشة وصفوان بن المعطل الذى قذف مع أم المؤمنين وتسليية لهم ، والشر ما زاد ضره على نفعه ، والخير ما زاد نفعه على ضره وأما الخير الذى لا شر فيه فهو الجنة ، والشر الذى لا خير فيه فهو النار ، ووجه كونه خيرا لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم مع بيان براءة أم المؤمنين وصيرورة قصتها هذه شرعا عاما ﴿ لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ﴾ أى بسبب تكلمه بالإفك ﴿ والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ قرأ الحسن والزهرى وأبو رجاء وحميد الأعرج ويعقوب وابن أبى عليه ومجاهد وعمرة بنت عبد الرحمن بضم الكاف . قال الفراء : وهو وجه جيد ؛ لأن العرب تقول : فلان تولى عظيم كذا وكذا ، أى أكبره ، وقرأ الباقون بكسرها . قيل : هما لغتان . وقيل : هو بالضم معظم الإفك ، وبالكسر البداءة به . وقيل : هو بالكسر : الإثم . فالمعنى : إن الذى تولى معظم الإفك من العصية له عذاب عظيم فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما .

واختلف فى هذا الذى تولى كبره من عصية الإفك من هو منهم ؟ فقيل : هو عبد الله بن أبى . وقيل : هو حسان ، والأول هو الصحيح . وقد روى محمد بن إسحاق وغيره أن النبى ﷺ جلد فى الإفك رجلين وامرأة ، وهم مسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش (١) . وقيل : جلد عبد الله بن أبى وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ولم يجلد مسطحا ، لأنه لم يصرح بالقذف ، ولكن كان يسمع ويشيع من غير تصريح . وقيل : لم يجلد أحدا منهم . قال القرطبى : المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذين حدوا : حسان ومسطح وحمنة .

ولم يسمع بحدّ لعبد الله بن أبي^(١) ، ويؤيد هذا ما فى سنن أبى داود عن عائشة ، قالت : لما نزل عذرى ، قام النبى ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدّهم ، وسماهم : حسان ، ومسطح بن أثانة ، وحمنة بنت جحش^(٢) .

واختلفوا فى وجه تركه ﷺ لجلد عبد الله بن أبيّ ، فقيل : لتوفير العذاب العظيم له فى الآخرة ، وحدّ من عداه ليكون ذلك تكفيرا لذنبهم كما ثبت عنه ﷺ فى الحدود أنه قال : «إنها كفارة لمن أقيمت عليه»^(٣) وقيل : ترك حدّه تألّفا لقومه واحتراما لابنه ، فإنه كان من صالحى المؤمنين وإطفاء لثائرة الفتنة ، فقد كانت ظهرت مبادئها من سعد بن عبادة ومن معه كما فى صحيح مسلم^(٤) .

ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول الله ﷺ ومن معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات فقال : ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا﴾ «لولا» هذه هى التحضيضية تأكيدا للتوبيخ والتقريع ومبالغة فى معاتبهم ، أى كان ينبغي للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم ، فإن كان ذلك يبعد فيهم ، فهو فى أمّ المؤمنين أبعد . قال الحسن : معنى ﴿بأنفسهم﴾ : بأهل دينهم ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ألا ترى إلى قوله : ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء : ٢٩] . قال الزجاج : ولذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضا : إنهم يقتلون أنفسهم . قال المبرّد : ومثله قوله سبحانه : ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ [البقرة : ٥٤] . قال النحاس : ﴿بأنفسهم﴾ : بإخوانهم ، فأوجب الله سبحانه على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا ويذكره بقرينة لا يعرفونه به أن يتكروا عليه ويكذبوه . قال العلماء : إن فى الآية دليلا على أن درجة الإيمان والعفاف لا يزيلها الخبر المحتمل وإن شاع ﴿وقالوا هذا إفك مبين﴾ أى قال المؤمنون عند سماع الإفك : هذا إفك ظاهر مكشوف .

وجملة : ﴿لولا جازوا عليه بأربعة شهداء﴾ من تمام ما يقوله المؤمنون ، أى وقالوا : هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك﴾ أى الخائضون فى الإفك ﴿عند الله هم الكاذبون﴾ أى فى حكم الله تعالى هم الكاذبون الكاملون فى الكذب ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة﴾ هذا خطاب للسامعين ، وفيه زجر عظيم ﴿ولولا﴾ هذه هى لامتناع الشئ لوجود غيره ﴿لمسكم فيما أفضتم فيه﴾ أى بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك ، يقال : أفاض فى الحديث ، واندفع وخاض . والمعنى :

(١) القرطبي ٤٥٩٣/٧ .

(٢) أبو داود فى الحدود (٤٤٧٤) .

(٣) البخارى فى الحدود (٦٧٨٤) ومسلم فى الحدود (٤١/١٧٠٩) والترمذى فى الحدود (١٤٣٩) وقال : «حسن صحيح» ، وقال الشافعى : «وأحب لمن أصاب ذنباً فستره الله عليه أن يستر على نفسه ويتوب فيما بينه وبين ربه» . كلهم عن عبادة بن الصامت بلفظ يختلف عما أورده الشوكانى .

(٤) مسلم فى التوبة (٥٦/٢٧٧٠) .

لولا أنى قضيت عليكم بالفضل فى الدنيا بالنعم التى من جملتها الإمهال ، والرحمة فى الآخرة بالعفو ، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك . وقيل : المعنى : لولا فضل الله عليكم لمسكم العذاب فى الدنيا والآخرة معا ، ولكن برحمته ستر عليكم فى الدنيا ، ويرحم فى الآخرة من أتاه تابها .

﴿ إذ تلقونه بالسنتكم ﴾ الظرف منصوب بمسكم أو بأفضتم ، قرأ الجمهور : ﴿ إذ تلقونه ﴾ من التلقى ، والأصل : تتلقونه فحذف إحدى التاءين . قال مقاتل ومجاهد : المعنى يرويه بعضكم عن بعض . قال الكلبي : وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول : بلغنى كذا وكذا ويتلقونه تلقيا . قال الزجاج : معناه : يلقى بعضكم إلى بعض . وقرأ محمد بن السميعة بضم التاء وسكون اللام وضم القاف ، من الإلقاء ، ومعنى هذه القراءة واضح . وقرأ أبى وابن مسعود : « تتلقونه » من التلقى ، وهى كقراءة الجمهور . وقرأ ابن عباس وعائشة وعيسى بن عمر ويحيى ابن يعمر وزيد بن على بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف وهذه القراءة مأخوذة من قول العرب ولقى يلقى ولقا : إذا كذب . قال ابن سيده : جاؤوا بالمعتدى شاهدا على غير المعتدى . قال ابن عطية : وعندى أنه أراد يلقون فيه فحذف حرف الجر فاتصل الضمير . قال الخليل وأبو عمرو : أصل الولق : الإسراع ، يقال : جاءت الإبل تلقى ، أى تسرع ، ومنه قول الشاعر :

لما رأوا جيشا عليهم قد طرق
جاؤوا بأسراب من الشام ولقى

وقال الآخر :

جاءت به عيس من الشام تلقى

قال أبو البقاء : أى يسرعون فيه . قال ابن جرير : وهذه اللفظة أى « تلقونه » على القراءة الأخيرة مأخوذة من الولق ، وهو الإسراع بالشئ بعد الشئ . كعدد فى إثر عدد ، وكلام فى إثر كلام ، وقرأ زيد بن أسلم وأبو جعفر : « تألقونه » بفتح التاء وهمزة ساكنة ولام مكسورة وقاف مضمومة من الألق وهو الكذب ، وقرأ يعقوب : « تيلقونه » بكسر التاء من فوق بعدها ياء تحتية ساكنة ولام مفتوحة وقاف مضمومة ، وهو مضارع ولقى بكسر اللام ، ومعنى ﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ﴾ أن قولهم هذا مختص بالأفواه من غير أن يكون واقعا فى الخارج معتقدا فى القلوب . وقيل : إن ذكر الأفواه للتأكيد كما فى قوله : ﴿ يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : ٣٨] ونحوه ، والضمير فى ﴿ تحسبونه ﴾ راجع إلى الحديث الذى وقع الخوض فيه والإذاعة له ﴿ وتحسبونه هينا ﴾ أى شيئا يسيرا لا يلحقكم فيه إثم ، وجملة ﴿ وهو عند الله عظيم ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى عظيم ذنبه وعقابه .

﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ هذا عتاب لجميع المؤمنين ، أى هلا إذ سمعتم حديث الإفك قلتم تكذيبا للخائضين فيه المفترين له ما ينبغى لنا ولا يمكننا أن نتكلم

بهذا الحديث ولا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه ، ومعنى قوله : ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ التعجب من أولئك الذين جاؤوا بالإفك ، وأصله التنزيه لله سبحانه ، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه . والبهتان هو : أن يقال في الإنسان ما ليس فيه ، أى هذا كذب عظيم لكونه قليل في أم المؤمنين رضى الله عنها ، وصدوره مستحيل شرعا من مثلها . ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا في الإفك فقال : ﴿ يعظكم الله أن تعودوا أن تعودوا لمثله أبدا ﴾ أى ينصحكم الله ، أو يحرم عليكم ، أو ينهاكم كراهة أن تعودوا ، أو من أن تعودوا ، أو فى أن تعودوا لمثل هذا القذف مدة حياتكم ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن الإيمان يقتضى عدم الوقوع فى مثله ما دمت ، وفيه تهيج عظيم وتقريع بالغ . ﴿ ويبين الله لكم الآيات ﴾ فى الأمر والنهى لتعملوا بذلك وتتأدبوا بأداب الله وتزجروا عن الوقوع فى محارمه ﴿ والله عليم ﴾ بما تبدونه وتخفونه ﴿ حكيم ﴾ فى تدبيراته خلقة .

ثم هدد سبحانه القاذفين ومن أراد أن يتسامح الناس بعيوب المؤمنين وذنوبهم فقال : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ﴾ أى يحبون أن تفسد الفاحشة وتنتشر ، من قولهم : شاع الشيء يشع شيوعا وشيعا وشيعانا : إذا ظهر وانتشر ، والمراد بالذين آمنوا : المحصنون العفيفون ، أو كل من اتصف بصفة الإيمان ، والفاحشة هى فاحشة الزنا أو القول السئى ﴿ لهم عذاب أليم فى الدنيا ﴾ بإقامة الحد عليهم ﴿ والآخرة ﴾ بعذاب النار والله يعلم جميع المعلومات ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ إلا ما علمكم به وكشفه لكم ، ومن جملة ما يعلمه الله عظم ذنب القذف ، وعقوبة فاعله ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ هو تكرير لما تقدم ذكره للمنة منه سبحانه على عباده بترك المعالجة لهم ﴿ وأن الله رؤوف رحيم ﴾ ومن رافته بعباده أن لا يعاجلهم بذنوبهم ، ومن رحمته لهم أن يتقدم إليهم بهذا الإعذار والإنذار . وجملة : ﴿ وأن الله رؤوف رحيم ﴾ معطوفة على فضل الله ، وجواب « لولا » محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى لعاجلكم بالعقوبة .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ الخطوات جمع خطوة ، وهى ما بين القدمين ، والخطوة بالفتح المصدر ، أى لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه ولا تسلكوا طرائقه التى يدعوكم إليها . قرأ الجمهور : ﴿ خطوات ﴾ بضم الخاء والطاء ، وقرأ عاصم والأعمش بضم الخاء وإسكان الطاء ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ قبل : جزاء الشرط محذوف أقيم مقامه ما هو علة له ، كأنه قيل : فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأن دأبه أن يستمر أمراً لغيره بهما . والفحشاء : ما أفرط قبحه . والمنكر : ما ينكره الشرع ، وضمير إنه للشيطان . وقيل : للشأن ، والأولى أن يكون عائدا إلى من يتبع خطوات الشيطان ، لأن من اتبع الشيطان صار مقتديا به فى الأمر بالفحشاء والمنكر ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ قد تقدم بيانه وجواب « لولا » هو قوله : ﴿ ما زكى منكم من أحد أبدا ﴾ أى لولا التفضل والرحمة من الله ما طهر أحد منكم نفسه من دنسها ما دام حيا . قرأ الجمهور : ﴿ زكى ﴾ بالتخفيف ،

وقرأ الأعمش وابن محيصن وأبو جعفر بالتشديد ، أى ما طهره الله . وقال مقاتل : أى ما صلح . والأولى تفسير زكى بالتطهر والتطهير ، وهو الذى ذكره ابن قتيبة . قال الكسائى إن قوله : ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ معترض ، وقوله : ﴿مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ جواب لقوله أولا وثانيا ولولا فضل الله . وقراءة التخفيف أرجح لقوله : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَرْكِّبُ مِنْ يَشَاءُ﴾ أى من عبادته بالتفضل عليهم والرحمة لهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولونه ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميع المعلومات وفيه حث بالغ على الإخلاص ، وتهييج عظيم لعباده التائبين ، ووعيد شديد لمن يتبع الشيطان ويحب أن تشيع الفاحشة فى عباد الله المؤمنين ، ولا يزر نفسه بزواج الله سبحانه .

وقد أخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم حديث عائشة الطويل فى سبب نزول هذه الآيات بألفاظ متعددة وطرق مختلفة . حاصله : أن سبب النزول هو ما وقع من أهل الإفك الذين تقدّم ذكرهم فى شأن عائشة رضى الله عنها ، وذلك أنها خرجت من هودجها تلمس عقدا لها انقطع من جزع ، فرحلوا وهم يظنون أنها فى هودجها ، فرجعت وقد ارتحل الجيش واليهودج معهم ، فأقامت فى ذلك المكان ومربها صفوان بن المعطل ، وكان متأخرا عن الجيش ، فأناخ راحلته وحملها عليها ؛ فلما رأى ذلك أهل الإفك قالوا ما قالوا ، فبرأها الله مما قالوه . هذا حاصل القصة مع طولها وتشعب أطرافها فلا نطول بذكر ذلك ^(١) . وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وأهل السنن الأربع وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن عائشة قالت : لما نزل عذرى قام رسول الله ﷺ على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حذهم . قال الترمذى : هذا حديث حسن ^(٢) . ووقع عند أبى داود تسميتهم : حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثانة ، وحمئة بنت جحش ^(٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : الذين افتروا على عائشة عبد الله بن أبى ابن سلول ومسطح وحسان وحمئة بنت جحش ^(٤) .

وأخرج البخارى وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن الزهري قال : كنت عند الوليد بن عبد الملك ، فقال : الذى تسولى كبره منهم على ، فقلت : لا ، حدثنى سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود

(١) أحمد ٦/١٩٤-١٩٧ والبخارى فى الشهادات (٢٦٦١) وفى التفسير (٤٧٥٠) وفى الأيمان (٦٦٦٢) ، (٦٦٧٩) وفى الاعتصام (٧٣٦٩) وفى التوحيد (٧٥٠٠-٧٥٤٥) ومسلم فى التوبة (٥٦/٢٧٧) وأبو داود فى الحدود (٤٤٧٤ ، ٤٤٧٥) والترمذى فى التفسير (٣١٨٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، والنسائى فى التفسير (٢٧١ ، ٣٨٠) وابن ماجه فى الحدود (٢٥٦٧) .

(٢) أحمد ٦/٣٥ وأبو داود فى الحدود (٤٤٧٤) والترمذى فى التفسير (٣١٨١) وقال : « هذا حديث حسن غريب » ، والنسائى فى الكبرى فى الرجم (٧٣٥١) وابن ماجه فى الحدود (٢٥٦٧) والبيهقى فى الدلائل ٧٤/٤ .

(٤) ابن جرير ٦٩/١٨ .

(٣) أبو داود فى الحدود (٤٤٧٥) .

كلهم سمع عائشة تقول : الذى تولى كبره منهم عبد الله بن أبى ، قال : فقال لى : فما كان جرمه ؟ قلت : حدثنى شيخان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول : كان مسيئا فى أمرى ^(١) . وقال يعقوب بن شيبة فى مسنده : حدثنا الحسن بن على الحلوانى ، حدثنا الشافعى ، حدثنا عمى قال : دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له : يا سليمان الذى تولى كبره من هو ؟ قال : عبد الله بن أبى . قال : كذبت هو على . قال : أمير المؤمنين أعلم بما يقول ، فدخل الزهرى فقال : يا بن شهاب من الذى تولى كبره ؟ فقال : ابن أبى . قال : كذبت هو على . قال : أنا أكذب ؟ لا أبأ لك ، والله لو نادى مناد من السماء أن الله قد أحل الكذب ما كذبت ، حدثنى عروة وسعيد وعبد الله وعلقمة عن عائشة أن الذى تولى كبره عبد الله بن أبى . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : دخل حسان بن ثابت على عائشة فشيب وقال :

حصان رزان ما تزن برية وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

قالت : لكنك لست كذلك ، قلت : تدعين مثل هذا يدخل عليك ، وقد أنزل الله : ﴿والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ فقالت : وأى عذاب أشد من العمى ^(٢) ؟ وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن بعض الأنصار : أن امرأة أبى أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا : ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال : بلى وذلك الكذب ، أكنت أنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ، قال : فعائشة والله خير منك وأطيب ، إنما هذا كذب وإفك باطل ^(٣) ؛ فلما نزل القرآن ذكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك . ثم قال : ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين﴾ أى كما قال أبو أيوب وصاحبه . وأخرج الواقدى والحاكم وابن عساكر عن أفلح مولى أبى أيوب أن أم أيوب . . . فذكر نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا﴾ قال : يحرج الله عليكم . وأخرج البخارى فى الأدب ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن على بن أبى طالب قال : القائل الفاحشة الذى شيع بها ، فى الإنم سواء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ما زكى منكم من أحد أبدا﴾ قال : ما اهتدى أحد من الخلائق لشيء من الخير .

(١) البخارى فى المغازى (٤١٤٢) والبيهقى فى الدلائل ٧٢/٤ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٧٥٦) ومسلم فى فضائل الصحابة (١٥٥/٢٤٨٨) والبيهقى فى الدلائل ٧٣/٤ . وحصان : عفيفة ، رزان : كاملة العقل ، ما تزن : ما تتهم ، غرثى : جائعة ، والغوافل : الغافلات عن الشر . يريد مدحها بالعفة والزناة وتبرئتها من أكل لحوم الناس بالغبية .

(٣) ابن هشام فى السيرة ٢٤٨/٣ وابن جرير ٧٧/١٨ .

﴿ وَلَا يَأْتَلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تُشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ۞

قوله : ﴿ وَلَا يَأْتَلُ ﴾ أى يحلف وزنه : يفتعل من الآلية ، وهى اليمين ، ومنه قول الشاعر :

تألى ابن أوس حلفه ليردنى إلى نسوة كأنهن مفايد

وقول الآخر :

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن بدرت منه الآلية برت

يقال : اتلى يأتلى إذا حلف . ومنه قوله سبحانه : ﴿ للذين يؤولون من نسائهم ﴾ [البقرة : ٢٢٦] وقالت فرقة : هو من ألوت فى كذا إذا قصرت ، ومنه لم آل جهدا : أى لم أقصر ، وكذا منه قوله : ﴿ لا يألونكم خبالا ﴾ [آل عمران : ١١٨] ، ومنه قول الشاعر :

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

والأول أولى بدليل سبب النزول ، وهو ما سيأتى ، والمراد بالفضل : الغنى والسعة فى المال ﴿ أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ﴾ أى : على أن لا يؤتوا . قال الزجاج : أن لا يؤتوا فحذف لا ، ومنه قول الشاعر :

فقلت : يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

وقال أبو عبيدة : لا حاجة إلى إضمار لا ، والمعنى : لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان الجامعين لتلك الأوصاف ، وعلى الوجه الآخر يكون المعنى : لا يقتصروا فى أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم شحنة لذنوب اقترفوها ، وقرأ أبو حية : « إن تؤتوا » بناء الخطاب على الالتفات . ثم علمهم سبحانه أدبا آخر فقال : ﴿ وليعفوا ﴾ عن ذنبهم الذى أذنبوه عليهم وجناباتهم التى اقترفوها ، من عفا الربيع ، أى درس ، والمراد محو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربيع ﴿ وليصفحوا ﴾ بالأغضاء عن الجانى والإغماض عن جنابته ، وقرئ بالفوقية فى الفعلين جميعا . ثم ذكر سبحانه ترغيبا عظيما لمن عفا وصفح فقال : ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله

لكم ﴿ بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للإساءة عليكم ﴾ واللّه غفور رحيم ﴿ أى كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم ، فكيف لا يقتدى العباد بربهم فى العفو والصفح عن المسيئين إليهم ؟

﴿ إن الذين يرمون المحصنات ﴾ قد مرّ تفسير المحصنات وذكرنا الإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء فى حدّ القذف . وقد اختلف فى هذه الآية هل هى خاصة أو عامة ؟ فقال سعيد بن جبیر : هى خاصة فىمن رمى عائشة رضى الله عنها . وقال مقاتل : هى خاصة بعبد الله بن أبى راس المنافقين . وقال الضحاك والكلبي : هذه الآية هى فى عائشة وسائر أزواج النبی ﷺ دون سائر المؤمنین والمؤمنات ، فمن قذف إحدى أزواج النبی ﷺ فهو من أهل هذه الآية . قال الضحاك : ومن أحكام هذه الآية أنه لا توبة لمن رمى إحدى أزواجه ﷺ ، ومن قذف غيرهنّ فقد جعل الله له التوبة كما تقدّم فى قوله : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ [التوبة : ٥] . وقيل : إن هذه الآية خاصة بمن أصرّ على القذف ولم يتب . وقيل : إنها تعم كلّ قاذف ومقذوف من المحصنات والمحصنين ، واختاره النحاس ، وهو الموافق لما قرره أهل الأصول من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقيل : إنها خاصة بمشركى مكة ؛ لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة : إنما خرجت لتفجر . قال أهل العلم : إن كان المراد بهذه الآية المؤمنون من القذفة ، فالمراد باللعنة الإبعاد وضرب الحدّ وهجر سائر المؤمنين لهم وزوالهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين ، وإن كان المراد بها من قذف عائشة خاصة كانت هذه الأمور فى جانب عبد الله بن أبى راس المنافقين ، وإن كانت فى مشركى مكة فإنهم ملعونون ﴿ فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ﴾ والمراد بالغافلات اللاتى غفلن عن الفاحشة بحيث لا تخطر ببالهنّ ولا يفطن لها ، وفى ذلك من الدلالة على كمال النزاهة وطهارة الجيب مالم يكن فى المحصنات . وقيل : هنّ السليمات الصدور ، النقيات القلوب .

﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها مبينة لوقت حلول ذلك العذاب بهم وتعيين اليوم لزيادة التهويل بما فيه من العذاب الذى لا يحيط به وصف . وقرأ الجمهور : ﴿ يوم تشهد ﴾ بالفوقية ، واختار هذه القراءة أبو حاتم ، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وخلف بالتحية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، لأن الجارّ والمجرور قد حال بين الاسم والفعل . والمعنى : تشهد ألسنة بعضهم على بعض فى ذلك اليوم . وقيل : تشهد عليهم ألسنتهم فى ذلك اليوم بما تكلموا به ﴿ وأيديهم وأرجلهم ﴾ بما عملوا بها فى الدنيا ، وإن الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم ، والمشهود محذوف وهو ذنوبهم التى اقترفوها ، أى تشهد هذه عليهم بذنوبهم التى اقترفوها ومعاصيهم التى عملوها .

﴿ ويومئذ يوفيه الله دينهم الحق ﴾ أى يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاءهم عليها موفراً ، فالمراد بالدين هاهنا : الجزاء ، وبالحق : الثابت الذى لا شك

فى ثبوته . قرأ زيد بن علىّ : « يوفيههم » مخففاً من أوفى ، وقرأ من عده بالتشديد من وفى . وقرأ أبو حيوه ومجاهد : « الحق » بالرفع على أنه نعت لله ، وروى ذلك عن ابن مسعود . وقرأ الباقر بالنصب على أنه نعت لدينهم . قال أبو عبيدة : لولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ليكون نعتاً لله عزّ وجلّ ولتكون موافقة لقراءة أبى ، وذلك أن جرير بن حازم قال : رأيت فى مصحف أبى : « يوفيههم الله الحق دينهم » . قال النحاس : وهذا الكلام من أبى عبيدة غير مرضى ، لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم ، ولا حجة أيضاً فيه ؛ لأنه لو صحّ أنه فى مصحف أبى كذلك جاز أن يكون دينهم بدلاً من الحقّ ﴿ ويعلمون أن الله هو الحقّ المين ﴾ أى ويعلمون عند معاينتهم لذلك ووقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز أن الله هو الحقّ الثابت فى ذاته وصفاته وأفعاله . المين : المظهر للأشياء كما هى فى أنفسها ، وإنما سمي سبحانه الحقّ لأن عبادته هى الحقّ دون عبادة غيره . وقيل : سمي بالحقّ ، أى الموجود ، لأن نقيضه الباطل وهو المعدوم .

ثم ختم سبحانه الآيات الواردة فى أهل الإفك بكلمة جامعة فقال : ﴿ الخبيثات للخبيثين ﴾ أى : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، أى مختصة بهم لا تتجاوزهم ، وكذا الخبيثون مختصون بالخبيثات لا يتجاوزونهن ، وهكذا قوله : ﴿ والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى الكلمات الخبيثات من القول ، للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات ، والكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات . قال النحاس : وهذا أحسن ما قيل . قال الزجاج : ومعناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء ، ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء ، وهذا ذمّ للذين قذفوا عائشة بالخبث ومدح للذين برؤوها . وقيل : إن هذه الآية مبنية على قوله : ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية ﴾ فالخبيثات : الزوانى ، والطيبات العفاف ، وكذا الخبيثون والطيبون ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ إلى الطيبين والطيبات ، أى : هم مبرءون مما يقوله الخبيثون والخبيثات ، وقيل : الإشارة إلى أزواج النبىّ ﷺ ، وقيل : إلى رسول الله ﷺ وعائشة وصفوان بن المعطل ، وقيل : عائشة وصفوان فقط . قال الفراء : وجمع كما قال : ﴿ فإن كان له إخوة ﴾ [النساء : ١١] والمراد أخوان ﴿ لهم مغفرة ﴾ أى هؤلاء المبرءون لهم مغفرة عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب ﴿ ورزق كريم ﴾ وهو رزق الجنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا يأتل ﴾ الآية ، يقول : لا يقيموا ألا ينفعوا أحداً . وأخرج ابن المنذر عن عائشة قالت : كان مسطح بن أثانة ممن تولى كبره من أهل الإفك ، وكان قريباً لأبى بكر وكان فى عياله ، فحلف أبو بكر ألا ينيله خيراً أبداً ، فأنزل الله ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ﴾ الآية ، قالت : فأعاده أبو بكر إلى عياله وقال : لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا تحللتها وأتيت الذى هو

خير . وقد روى هذا من طرق عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد رموا عائشة بالقيح وأنفثوا ذلك وتكلموا فيها ، فأقسم ناس من أصحاب النبي ﷺ منهم أبو بكر ألا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من هذا ولا يصلوه ، فقال : لا يقسم أولو الفضل منكم والسعة أن يصلوا أرحامهم وأن يعطوهم من أموالهم كالذي كانوا يفعلون قبل ذلك ، فأمر الله أن يغفر لهم وأن يعفى عنهم (١) .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ الآية ، قال : نزلت في عائشة خاصة (٢) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني وابن مردويه عنه أيضا في الآية قال : هذه في عائشة وأزواج النبي ﷺ ، ولم يجعل لمن فعل ذلك توبة ، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ التوبة ، ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ (٣) . وأخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي سعيد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم ، فيقال : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول : كذبوا ، فيقال : أهلك وعشيرتك ، فيقول : كذبوا ، فيقال : احلفوا فيحلفون ، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ، ثم يدخلهم النار » (٤) . وقد روى عن النبي ﷺ من طريق جماعة من الصحابة ما يتضمن شهادة الجوارح على العصاة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ يوفيهُم الله دينهم الحق ﴾ قال : حسابهم وكل شيء في القرآن الدين فهو الحساب . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ؛ أن النبي ﷺ قرأ : « يَوْمَئِذٍ يوفيهُم الله الحق دينهم » .

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ الْخَبِيثَاتِ ﴾ قال : من الكلام ﴿ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ قال : من الرجال ﴿ وَالْخَبِيثُونَ ﴾ من الرجال ﴿ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ من الكلام ﴿ وَالطَّيَّاتِ ﴾ من الكلام ﴿ لِلطَّيِّينِ ﴾ من الناس ﴿ وَالطَّيِّونَ ﴾ من الناس ﴿ لِلطَّيَّاتِ ﴾ من الكلام ، نزلت في الذين قالوا في زوجة النبي ﷺ ما قالوا من البهتان . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير والطبراني عن قتادة نحوه أيضا ، وكذا روى عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن زيد في الآية قال : نزلت في عائشة حين رماها المنافقون بالبهتان والفرية فبرأها الله من ذلك ، وكان عبد الله بن أبي هو الخبيث ، فكان هو

(١) ابن جرير ٨٢/١٨ .

(٢) صححه الحاكم ١٠/٤ . ووافقه الذهبي .

(٣) ابن جرير ٨٣/١٨ والطبراني (٢٣٤) وقال الهيثمي في المجمع ٨٣/٧ : « وفي إسناده راوٍ لم يسم ببقية رجاله ثقات » .

(٤) أبو يعلى (١٣٩٢) وقال الهيثمي في المجمع ٣٥٤/١٠ : « رواه أبو يعلى بإسناد حسن على ضعف فيه » .

أولى بأن تكون له الخبيثة ويكون لها ، وكان رسول الله ﷺ طيبا ، فكان أولى أن تكون له الطيبة ، وكانت عائشة الطيبة ، وكانت أولى بأن يكون لها الطيب ، وفي قوله : ﴿ أولئك مبرؤون مما يقولون ﴾ قال : ها هنا برئت عائشة (١) . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : لقد نزل عذرى من السماء ، ولقد خلقت طيبة وعند طيب ، ولقد وعدت مغفرة وأجرا عظيما .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا والقذف ، شرع فى ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان لما فى ذلك من مخالطة الرجال بالنساء ، فربما يؤدى إلى أحد الأمرين المذكورين ، وأيضا : إن الإنسان يكون فى بيته ومكان خلوته على حالة قد لا يحب أن يراه عليها غيره ، فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير إلا لغاية ، هى قوله : ﴿ حتى تستأنسوا ﴾ والاستئناس : الاستعلام والاستخبار ، أى حتى تستعلموا من فى البيت ، والمعنى : حتى تعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم ، وتعلموا أنه قد أذن بدخولكم ، فإذا علمتم ذلك دخلتم ، ومنه قوله : ﴿ فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رَشْدًا ﴾ [النساء : ٦] أى علمتم . قال الخليل : الاستئناس : الاستكشاف ، من أنس الشيء إذا أبصره كقوله : ﴿ إني أنست نارا ﴾ [طه : ١٠] أى أبصرت . وقال ابن جرير : إنه بمعنى : وتؤنسوا أنفسكم . قال ابن عطية : وتصريف الفعل يأبى أن يكون من أنس . ومعنى كلام ابن جرير هذا أنه من الاستئناس الذى هو خلاف الاستبحاش ، لأن الذى يطرق باب غيره لا يدرى يؤذن له أم لا ؟ فهو كالمستوحش حتى يؤذن له ، فإذا أذن له استأنس ، فنهى سبحانه عن دخول تلك البيوت حتى يؤذن للداخل . وقيل : هو من الإنس ، وهو يتعرف هل ثم إنسان أم لا ؟ وقيل : معنى الاستئناس : الاستئذان ، أى لا تدخلوها حتى تستأذنوا . قال الواحدى : قال جماعة المفسرين : حتى تستأذنوا ، ويؤيده ما حكاه القرطبي عن ابن عباس وأبى وسعيد بن جبير أنهم قرؤوا : « حتى تستأذنوا » قال مالك فيما حكاه عنه ابن وهب : الاستئناس فيما يرى والله أعلم : الاستئذان ، وقوله : ﴿ وتسلموا على أهلها ﴾ قد بينه النبى ﷺ كما سيأتى بأن يقول : السلام عليكم أدخل ؟ مرة أو ثلاثا كما سيأتى .

واختلفوا هل يقدم الاستئذان على السلام أو العكس ؟ فقيل : يقدم الاستئذان ، فيقول :

(١) ابن جرير ٨٦/١٨ والطبرانى (٢٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٨٤/٧ : « ورجاله ثقات إني عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم » .

أدخل ؟ سلام عليكم ، لتقديم الاستئناس فى الآية على السلام . وقال الأكثرون : إنه يقدم السلام على الاستئذان فيقول : السلام عليكم ، أدخل ؟ ، وهو الحق ، لأن البيان منه ﷺ للآية كان هكذا . وقيل : إن وقع بصره على إنسان قدم السلام ، وإلا قدم الاستئذان ﴿ ذلکم خیر لکم ﴾ الإشارة إلى الاستئناس والتسليم ، أى دخولكم مع الاستئذان والسلام خير لكم من الدخول بغتة ﴿ لعلکم تذكرون ﴾ أن الاستئذان خير لكم ، وهذه الجملة متعلقة بمقدّر ، أى أمرتم بالاستئذان ، والمراد بالتذكّر الاتعاظ ، والعمل بما أمروا به ﴿ فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لکم ﴾ أى فإن لم تجدوا فى البيوت التى لغيركم أحدا ممن يستأذن عليه فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم بدخولها من جهة من يملك الإذن . وحكى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : معنى فإن لم تجدوا فيها أحدا ، أى لم يكن لكم فيها متاع ، وضعفه وهو حقيق بالضعف ؛ فإن المراد بالأحد المذكور : أهل البيوت الذين يأذنون للغير بدخولها ، لا متاع الداخلين إليها ﴿ وإن قيل لکم ارجعوا فارجعوا ﴾ أى إن قال لكم أهل البيت : ارجعوا فارجعوا ، ولا تعاودوهم بالاستئذان مرة أخرى ، ولا تنتظروا بعد ذلك أن يأذنوا لكم بعد أمرهم لكم بالرجوع . ثم بين سبحانه أن الرجوع أفضل من الإلحاح وتكرار الاستئذان والقفود على الباب فقال : ﴿ هو أركى لکم ﴾ أى أفضل ﴿ وأظهر ﴾ من التدنس بالمشاحة على الدخول لما فى ذلك من سلامة الصدر ، والبعد من الريبة ، والفرار من الدناءة ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لکم ﴾ أى : لا جناح عليكم فى الدخول بغير استئذان إلى البيوت التى ليست بمسكونة .

وقد اختلف الناس فى المراد بهذه البيوت ، فقال محمد ابن الحنفية وقتادة ومجاهد : هى الفنادق التى فى الطرق السابلة الموضوعة لابن السبيل يأوى إليها . وقال ابن زيد والشعبى : هى حوانيت القيساريات ، قال الشعبى : لأنهم جاؤوا ببيعهم فجعلوها فيها ، وقالوا للناس هلم . وقال عطاء : المراد بها الخرب التى يدخلها الناس للبول والغائط ، ففى هذا أيضا متاع . وقيل : هى بيوت مكة . روى ذلك عن محمد ابن الحنفية أيضا ، وهو موافق لقول من قال : إن الناس شركاء فيها ، ولكن قد قيد سبحانه هذه البيوت المذكورة هنا بأنها غير مسكونة . والمتاع : المنفعة عند أهل اللغة ، فيكون معنى الآية : فيها منفعة لكم ، ومنه قوله : ﴿ ومتعوهن ﴾ [البقرة : ٢٣٦] وقولهم : أمتع الله بك ، وقد فسر الشعبى المتاع فى كلامه المتقدم بالأعيان التى تباع . قال جابر بن زيد : وليس المراد بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة . قال النحاس : وهو حسن موافق للغة ﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ أى : ما تظهرون وما تخفون ، وفيه وعيد لمن لم يتأدب بآداب الله فى دخول بيوت الغير .

وقد أخرج الفريابى وابن جرير من طريق عدى بن ثابت عن رجل من الأنصار قال : قالت امرأة : يا رسول الله ، إني أكون فى بيتى على الحالة التى لا أحب أن يرانى عليها أحد : ولد ولا والد ، فيأتينى الأب فيدخل علىّ فكيف أصنع ؟ ولفظ ابن جرير : وإنه لا يزال يدخل علىّ

رجل من أهلى وأنا على تلك الحالة ، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ (١) الآية . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأثير في المصاحف ، وابن منده في غرائب شعبه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، والضياء في المختارة من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ حَتَّى تَسْأَلُوا ﴾ قال : أخطأ الكاتب « حتى تستأذنوا » ﴿ وَتَسْلَمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ (٢) . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي عن إبراهيم النخعي قال في مصحف عبد الله : « حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا » (٣) . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : الاستئناس : الاستئذان .

وأخرج ابن أبي شيبة والحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم عن أبي أيوب قال : قلت : يا رسول الله ، أرأيت قول (٤) الله تعالى : ﴿ حَتَّى تَسْأَلُوا وَتَسْلَمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ هذا التسليم قد عرفناه فما الاستئناس ؟ قال : « يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحى فيؤذن أهل البيت » . قال ابن كثير : هذا حديث غريب (٥) . وأخرج الطبراني عن أبي أيوب أن النبي ﷺ قال : « الاستئناس أن يدعو الخادم حتى يستأنس أهل البيت الذين يسلم عليهم » (٦) . وأخرج ابن سعد وأحمد ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود والترمذي والنسائي ، والبيهقي في الشعب من طريق كلدة ؛ أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبأ وضغاييس والنبي ﷺ بأعلى الوادي ، قال : فدخلت عليه ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبي ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم أَدْخَلَ ؟ » قال الترمذي : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه (٧) .

(١) ابن جرير ٨٨ / ١٨ .

(٢) ابن جرير ٨٧ / ١٨ وصححه الحاكم ٣٩٦ / ٢ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٨٨٠٤) وقال : « وهذا الذي رواه شعبة ، واختلف عليه في إسناده ، ورواه أبو بشر واختلف عليه في إسناده من أخبار الآحاد . ورواية إبراهيم عن ابن مسعود منقطعة . والقراءة العامة ثبت نقلها بالتواتر ؛ فهي أولى ، ويحتمل أن تكون تلك القراءة الأولى ، ثم صارت القراءة إلى ما عليه العامة ، ونحن لانزعم أن شيئاً مما وقع عليه الإجماع أو نقل متواتراً خطأ ، وكيف يجوز أن يقال ذلك ، وله وجه يصح وإليه ذهب العامة » .

(٣) ابن جرير ٨٧ / ١٨ والبيهقي في الشعب (٨٨٠٠) ، وقد سبق ذكر تعليقه عليه .

(٤) في المطبوعة : « قول » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٥) ابن أبي شيبة في الأدب (٥٧٢٦) والطبراني (٤٠٦٥) وفي سنده واصل بن السائب . قال البخاري وغيره : « منكر الحديث » ، وقال النسائي : « متروك » ، وقال أبو زرعة : « ضعيف » . ميزان الاعتدال ٣٢٨ / ٤ . (٩٣٢٣) .

(٦) الطبراني (٤٠٦٤) وإسناده كإسناده سابقه .

(٧) ابن سعد ٤٥٨ / ٥ وأحمد ٤١٤ / ٣ وأبو داود في الأدب (٥١٧٦) والترمذي في الاستئذان (٢٧١٠) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والنسائي في الكبرى في الأظعمة (٦٧٣٥) .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخارى فى الأدب وأبو داود ، والبيهقى فى السنن من طريق ربيعى ، قال : حدثنا رجل من بنى عامر استأذن على النبى ﷺ وهو فى بيت ، فقال : أألج ؟ فقال النبى ﷺ لحادمه : « اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان » ، « فقل له : قل : السلام عليكم أدخل ؟ » (١) . وأخرج ابن جرير عن عمر بن سعيد الثقفى نحوه مرفوعا ، ولكنه قال : إن النبى ﷺ قال لأمة له يقال لها : روضة : « قومى إلى هذا فعلميه » (٢) .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : كنت جالسا فى مجلس من مجالس الأنصار فجاء أبو موسى فزعا ، فقلنا له : ما أفزعك قال : أمرنى عمر أن آتیه فأتيته ، فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، فقال : ما منعك أن تأتینى ؟ فقلت : قد جئت فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع » : قال : لتأتینى على هذا بالبينة . فقالوا : لا يقوم إلا أصغر القوم ، فقام أبو سعيد معه ليشهد له ، فقال عمر لأبى موسى : إنى لم أتهمك ، ولكن الحديث عن رسول الله ﷺ شديد (٣) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث سهل بن سعد قال : اطلع رجل من جحر فى حجرة النبى ﷺ ومعه مدرى يحك بها رأسه ، قال : « لو أعلم أنك تنظر لطعنت بها فى عينك ، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » . وفى لفظ : « إنما جعل الإذن من أجل البصر » (٤) . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن مردويه عن أنس قال : قال رجل من المهاجرين : لقد طلبت عمرى كله فى هذه الآية ، فما أدركتها ، أن أستاذن على بعض إخوانى ، فيقول لى : ارجع ، فأرجع وأنا مغتبط لقوله : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا ﴾ (٥) فأرجعوا هو أركبى لكم . وأخرج البخارى فى الأدب ، وأبو داود فى النسخ والنسخ ، وابن جرير عن ابن عباس قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾ .

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ

(١) ابن أبى شيبة فى الأدب (٥٧٢٤) وأحمد ٣٦٩/٥ وأبو داود فى الأدب (٥١٧٧) ، والبيهقى ٣٤٠/٨ .

(٢) ابن جرير ٨٧/١٨ .

(٣) البخارى فى الاستئذان (٦٢٤٥) ومسلم فى الأدب (٣٣/٢١٥٣) وأبو داود فى الأدب (٥١٨٠) والترمذى فى الاستئذان (٢٦٩٠) وقال : « هذا حديث حسن » وابن ماجه فى الأدب (٣٧٠٦) .

(٤) البخارى فى الاستئذان (٦٢٤١) ومسلم فى الأدب (٤٠/٢١٥٦) والترمذى فى الاستئذان (٢٧٠٩) وقال :

« هذا حديث حسن صحيح » .

(٥) فى المطبوعة : « راجعوا » .

مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ تَابَعِينَ غَيْرَ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِعَلْمٍ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

لما ذكر سبحانه حكم الاستئذان ، أتبعه بذكر حكم النظر على العموم ، فيندرج تحته غضّ البصر من المستأذن ، كما قال ﷺ : « إنما جعل الإذن من أجل البصر »^(١) وخص المؤمنين مع تحريره على غيرهم ، لكون قطع ذرائع الزنا التي منها النظر هم أحق من غيرهم بها وأولى بذلك ممن سواهم . وقيل : إن في الآية دليلا على أن الكفار غير مخاطبين بالشرعيات كما يقوله بعض أهل العلم . وفي الكلام حذف ، والتقدير : قل للمؤمنين غصوا ، يغصوا . ومعنى غضّ البصر : إطباق الجفن على العين بحيث تمتنع الرؤية ، ومنه قول جرير :

فغضّ الطرف إنك من غير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وقول عنترة :

وأغضّ طرفي ما بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى ماواها

و « من » في قوله : ﴿ من أبصارهم ﴾ هي التبعيضية ، وإليه ذهب الأكثرون ، وبينوه بأن المعنى غضّ البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل . وقيل : وجه التبعيض أنه يعنى للناظر أول نظرة تقع من غير قصد . وقال الأخفش : إنها زائدة وأنكر ذلك سيبويه . وقيل : إنها لبيان الجنس قاله أبو البقاء . واعترض عليه بأنه لم يتقدم مبهم يكون مفسرا بمن . وقيل : إنها لابتداء الغاية ، قاله ابن عطية . وقيل : الغضّ : النقصان ، يقال : غضّ فلان من فلان ، أى وضع منه ، فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو مفضوض منه ومنقوص فتكون « من » صلة للغضّ ، وليست لمعنى من تلك المعانى الأربعة . وفي هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير من يحلّ النظر إليه ، ومعنى ﴿ ويحفظوا فروجهم ﴾ : أنه يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم . وقيل : المراد ستر فروجهم عن أن يراها من لا تحل له رؤيتها ، ولا مانع من إرادة المعنيين ، فالكل يدخل تحت حفظ الفرج . قيل : ووجه المجيء بمن في الأبصار دون الفروج أنه موسع في النظر فإنه لا يحرم منه إلا ما استثنى ، بخلاف حفظ الفرج فإنه مضيق فيه ، فإنه لا يحلّ منه إلا ما استثنى . وقيل : الوجه أن غضّ البصر كله كالمعتذر ، بخلاف حفظ الفرج فإنه ممكن على الإطلاق . والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما ذكر من الغضّ والحفظ ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ أركي لهم ﴾ أى أظهر لهم من دنس الريّة وأطيب من التلبس بهذه الدنيّة ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ لا يخفى عليه شيء من صنعهم ، وفي ذلك وعيد لمن لم يغضّ بصره ويحفظ فرجه .

(١) جزء من حديث سبق تخريجه .

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ خصّ سبحانه الإناث بهذا الخطاب على طريق التأكيد لدخولهنّ تحت خطاب المؤمنين تغليبا كما فى سائر الخطابات القرآنية ، وظهر التضعيف فى يغضضن ولم يظهر فى يغضوا ؛ لأن لام الفعل من الأوّل متحركة ومن الثانى ساكنة ، وهما فى موضع جزم جوابا للأمر ، وبدأ سبحانه بالغضّ فى الموضعين قبل حفظ الفرج ؛ لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج ، والوسيلة مقدّمة على المتوسل إليه ، ومعنى ﴿ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ : كمنعنى ﴿ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ، فيستدلّ به على تحريم نظر النساء إلى ما يحرم عليهنّ ، وكذلك يجب عليهنّ حفظ فروجهنّ على الوجه الذى تقدّم فى حفظ الرجال لفروجهم ﴿ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ أى ما يتزينّ به من الحلية وغيرها ، وفى النهى عن إبداء الزينة نهى عن إبداء مواضعها من أبدانهنّ بالأولى . ثم استثنى سبحانه من هذا النهى ، فقال : ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ .

واختلف الناس فى ظاهر الزينة ما هو ؟ فقال ابن مسعود وسعيد بن جبير : ظاهر الزينة هو الثياب وزاد سعيد بن جبير الوجه . وقال عطاء والأوزاعى : الوجه والكفان . وقال ابن عباس وقتادة والمصور بن مخرمة : ظاهر الزينة هو الكحل والسواك والخضاب إلى نصف الساق ونحو ذلك ، فإنه يجوز للمرأة أن تبديه . وقال ابن عطية : إن المرأة لا تبدى شيئا من الزينة وتخفى كل شئ من زينتها ، ووقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة . ولا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآنى النهى عن إبداء الزينة إلا ما ظهر منها كالجلباب والخمار ونحوهما مما على الكف والقدمين من الحلية ونحوها ، وإن كان المراد بالزينة : مواضعها كان الاستثناء راجعا إلى ما يشق على المرأة ستره كالكفين والقدمين ونحو ذلك . وهكذا إذا كان النهى عن إظهار الزينة يستلزم النهى عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب ، فإنه يحمل الاستثناء على ما ذكرناه فى الموضعين ، وأما إذا كانت الزينة تشمل مواضع الزينة وما تتزين به النساء فالأمر واضح ، والاستثناء يكون من الجميع . قال القرطبى فى تفسيره : الزينة على قسمين : خلقية ومكتسبة ؛ فالخلقية وجهها فإنه أصل الزينة ، والزينة المكتسبة : ما تحاوله المرأة فى تحسين خلقها كالثياب والحلى والكحل والخضاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وقول الشاعر :

يأخذن زينتهنّ أحسن ما ترى وإذا عطلنّ فهنّ خير عواطل (١)

﴿ وَلِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ قرأ الجمهور بإسكان اللام التى للأمر . وقرأ أبو عمرو بكسرها على الأصل لأن أصل لام الأمر الكسر ، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس . والخمر : جمع خمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها ، ومنه اختمرت المرأة وتخمرت . والجيوب : جمع جيب ، وهو موضع القطع من الدرع والقميص ، مأخوذ من الجوب وهو القطع . قال المفسرون : إن نساء الجاهلية كنّ يسدنّ خمرهنّ من خلفهنّ ، وكانت جيوبهنّ من قدام واسعة ، فكان

تنكشف نحورهنّ وقلائدهنّ ، فأمرن أن يضربن مقانعهنّ على الجيوب لتستر بذلك ما كان يبدو ، وفى لفظ الضرب مبالغة فى الإلقاء الذى هو الإلصاق . قرأ الجمهور : ﴿ بخميرهنّ ﴾ بتحريك الميم ، وقرأ طلحة بن مصرف بسكونها . وقرأ الجمهور : ﴿ جيوبهنّ ﴾ بضم الجيم ، وقرأ ابن كثير وبعض الكوفيين بكسرها ، وكثير من متقدمى النحويين لا يجوزون هذه القراءة . وقال الزجاج : يجوز أن يدل من الضمة كسرة ، فأما ما روى عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فمحال لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء ، وقد فسر الجمهور الجيوب بما قدمنا وهو المعنى الحقيقى . وقال مقاتل : إن معنى على جيوبهنّ : على صدورهنّ ، فيكون فى الآية مضاف محذوف ، أى على مواضع جيوبهنّ .

ثم كرر سبحانه النهى عن إبداء الزينة لأجل ما سيذكره من الاستثناء فقال : ﴿ ولا يبدین زینتهنّ إلا لبعولتهنّ ﴾ : البعل : هو الزوج والسيد فى كلام العرب ، وقدم البعولة لأنهم المقصودون بالزينة ، ولأن كل بدن الزوجة والسرية حلال لهم ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ [المؤمنون : ٥ ، ٦] . ثم لما استثنى سبحانه الزوج أتبعه باستثناء ذوى المحارم فقال : ﴿ أو آبائهنّ أو آباء بعولتهنّ ﴾ إلى قوله : ﴿ أو بنى أخواتهنّ ﴾ فجوز للنساء أن يبدین الزينة لهؤلاء لكثرة المخالطة وعدم خشية الفتنة لما فى الطباع من النفرة عن القرائب . وقد روى عن الحسن والحسين رضى الله عنهما أنهما كانا لا ينظران إلى أمهات المؤمنين ذهابا منهما إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبی ﷺ وهى قوله : ﴿ لا جناح عليهنّ فى آبائهنّ ﴾ [الأحزاب : ٥٥] . والمراد بأبناء بعولتهنّ ذكور أولاد الأزواج ، ويدخل فى قوله : ﴿ أو آبائهنّ ﴾ أولاد الأولاد وإن سفلوا وأولاد بناتهنّ وإن سفلوا ، وكذا آباء البعولة وآباء الإماء وآباء الأمهات وإن علوا ، وكذلك أبناء البعولة وإن سفلوا ، وكذلك أبناء الإخوة والأخوات . وذهب الجمهور إلى أن العمّ والخال كسائر المحارم فى جواز النظر إلى ما يجوز لهم ، وليس فى الآية ذكر الرضاع ، وهو كالنسب . وقال الشعبى وعكرمة : ليس العمّ والخال من المحارم ، ومعنى ﴿ أو نسائهنّ ﴾ : هنّ المختصات بهنّ الملابس لهنّ بالخدمة أو الصحبة ، ويدخل فى ذلك الإماء ، ويخرج من ذلك نساء الكفار من أهل الذمة وغيرهم ، فلا يحل لهنّ أن يبدین زینتهنّ لهنّ لأنهنّ لا يتخرجن عن وصفهنّ للرجال . وفى هذه المسألة خلاف بين أهل العلم ، وإضافة النساء إليهنّ تدل على اختصاص ذلك بالمؤمنات ﴿ أو ما ملكت أيمانهنّ ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيد والإماء من غير فرق بين أن يكونوا مسلمين أو كافرين ، وبه قال جماعة من أهل العلم ، وإليه ذهب عائشة وأمّ سلمة وابن عباس ومالك . وقال سعيد بن المسيب : لا تغرنكم هذه الآية : ﴿ أو ما ملكت أيمانهنّ ﴾ إنما عنى بها الإماء ولم يعن بها العبيد . وكان الشعبى يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته ، وهو قول عطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين ، وروى عن ابن مسعود ، وبه قال أبو حنيفة وابن جريج ﴿ أو التابعين غير أولى الإرية من الرجال ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ غير ﴾ بالجر . وقرأ أبو بكر وابن عامر

بالنصب على الاستثناء . وقيل : على القطع ، والمراد بالتابعين هم الذين يتبعون القوم فيصيرون من طعامهم لا همة لهم إلا ذلك ولا حاجة لهم في النساء قاله مجاهد وعكرمة والشعبي ، ومن الرجال في محل نصب على الحال . وأصل الإربة والأرب والمأربة الحاجة والجمع مأرب ، أى حوائج ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ ولى فيها مأرب أخرى ﴾ [طه : ١٨] ، ومنه قول طرفة :

إذا المرء قال الجهل والحب والحنأ تقدّم يوما ثم ضاعت مأربه

وقيل : المراد بغير أولى الإربة من الرجال : الحمقى الذين لا حاجة لهم في النساء . وقيل : البله . وقيل : العنين . وقيل : الحصى . وقيل : المخث . وقيل : الشيخ الكبير ، ولا وجه لهذا التخصيص ، بل المراد بالآية ظاهرها وهم من يتبع أهل البيت ، ولا حاجة له في النساء ولا يحصل منه ذلك في حال من الأحوال ، فيدخل في (١) هؤلاء من هو بهذه الصفة ويخرج من عداه ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ الطفل : يطلق على المفرد والمثنى ، أو المراد به هنا : الجنس الموضوع موضع الجمع بدلالة وصفه بوصف الجمع ، وفي مصحف أبى : «أو الاطفال» على الجمع ، يقال للإنسان طفل ما لم يراهق الحلم ، ومعنى ﴿ لم يظهروا ﴾ لم يطلعوا ، من الظهور بمعنى الاطلاع ، قاله ابن قتيبة . وقيل : معناه : لم يبلغوا حد الشهوة ، قاله الفراء والزجاج ، يقال : ظهرت على كذا : إذا غلبته وقهرته . والمعنى : لم يطلعوا على عورات النساء ويكشفوا عنها للجماع ، أو لم يبلغوا حد الشهوة للجماع . قراءة الجمهور : ﴿ عَوْرَاتٍ ﴾ بسكون الواو تخفيفا ، وهى لغة جمهور العرب . وقرأ ابن عامر في رواية بفتحها . وقرأ بذلك ابن أبى إسحاق والأعمش . ورويت هذه القراءة عن ابن عباس ، وهى لغة هذيل بن مدركة ، ومنه قول الشاعر الذى أنشده الفراء :

أخو بيضاتٍ رائحٍ متأوبٌ رفيقٌ لمسح المنكبينِ سبوحٌ

واختلف العلماء فى وجوب ستر ما عدا الوجه والكفين من الأطفال ، فقليل : لا يلزم لأنه لا تكليف عليه ، وهو الصحيح . وقيل : يلزم لأنها قد تشتهى المرأة . وهكذا اختلف فى عورة الشيخ الكبير الذى قد سقطت شهوته ، والأولى بقاء الحرمة كما كانت ، فلا يحلّ النظر إلى عورته ولا يحلّ له أن يكشفها .

وقد اختلف العلماء فى حدّ العورة . قال القرطبي : أجمع المسلمون على أن السواطين عورة من الرجل والمرأة ، وأن المرأة كلها عورة إلا وجهها ويديها على خلاف فى ذلك (٢) . وقال الأكثر : إن عورة الرجل من سرّته إلى ركبته ﴿ ولا يضرّين بأرجلهنّ ليعلم ﴾ (٣) ما يخفين من

(١) فى المطبوعة : « من » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) القرطبي ٤٦٢٩/٧ .

(٣) فى المطبوعة : « ليعلم » .

زينتهن ﴿ أى لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت ليسمع صوت خلخالها من يسمعه من الرجال فيعلمون أنها ذات خلخال . قال الزجاج : وسماع هذه الزينة أشد تحريكا للشهوة من إبدائها . ثم أرشد عباده إلى التوبة عن المعاصي فقال سبحانه : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون ﴾ فيه الأمر بالتوبة ، ولا خلاف بين المسلمين فى وجوبها وأنها فرض من فرائض الدين . وقد تقدم الكلام على التوبة فى سورة النساء (١) . ثم ذكر ما يرغبهم فى التوبة ، فقال : ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أى تفوزون بسعادة الدنيا والآخرة . وقيل : إن المراد بالتوبة هنا : هى عما كانوا يعملونه فى الجاهلية ، والأول أولى لما تقرر فى السنة أن الإسلام يجب ما قبله .

وقد أخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب قال : مرّ رجل على عهد رسول الله ﷺ فى طريق من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به ، فبينما الرجل يمشى إلى جنب حائط وهو ينظر إليها ، إذ استقبله الحائط فشق أنفه ، فقال : والله لا أغسل الدمّ حتى آتى رسول الله ﷺ فأعلمه أمرى ، فاتاه فقص عليه قصته ، فقال النبى ﷺ : هذا عقوبة بذنبك ، وأنزل الله : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ قال : يعنى من شهواتهم عما يكره الله . وأخرج ابن أبى شيبه وأبو داود والترمذى ، والبيهقى فى سننه عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تتبع النظرة النظرة ، فإن الأولى لك ، وليست لك الأخرى » (٢) . وفى مسلم وأبى داود والترمذى والنسائى عن جرير البجلي قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة ، فأمرنى أن أصرف بصرى (٣) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات » ، قالوا : يا رسول الله ، ما لنا بدّ من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال : « إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه » ، قالوا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « غضّ البصر ، وكف الأذى ، وردّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » (٤) .

وأخرج البخارى وأهل السنن وغيرهم عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه قال : قلت : يا رسول الله ، عوراتنا ما نأبى منها وما نذر ؟ قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك ، أو ما ملكت

(١) عند تفسير الآيات : ١٦ - ١٨ .

(٢) أبو داود فى النكاح (٢١٤٩) والترمذى فى الأدب (٢٧٧٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والبيهقى ٩٠ / ٧ .

(٣) مسلم فى الآداب (٤٥ / ٢١٥٩) وأبو داود فى النكاح (٢١٤٨) والترمذى فى الأدب (٢٧٧٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩٢٣٣) .

(٤) أحمد ٣ / ٣٦ ، ٤٧ ، والبخارى فى المظالم (٢٤٦٥) وفى الاستئذان (٦٢٢٩) ومسلم فى اللباس (١١٤ / ٢١٢١) وأبو داود فى الأدب (٤٨١٥) .

يمينك » . قلت : يا نبيَّ الله ، إذا كان القوم بعضهم فى بعض ، قال : « إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينها » ، قلت : إذا كان أحدنا خاليا ، قال : « فאלله أحقّ أن يستحيا منه من الناس » (١) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله على ابن آدم حفظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، وزنا الأذنين السماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الخطو ، والنفس تمنى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » (٢) . وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة ، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيمانا يجد حلاوته فى قلبه » (٣) والأحاديث فى هذا الباب كثيرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل قال : بلغنا والله أعلم أن جابر بن عبد الله الأنصارى حدث أن أسماء بنت يزيد كانت فى نخل لها لبنى حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما فى أرجلهن ، يعنى الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا ، فأنزل الله ذلك : ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ الآية ، وفيه - مع كونه مرسلا - مقاتل .

وأخرج عبد الرزاق والفرىابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ولا يبدین زینتهن﴾ قال : الزينة : السوار والدملج والخلخال والقرط والقلادة ﴿إلا ما ظهر منها﴾ قال : الثياب والجلباب . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر عنه قال : الزينة : زينتان زينة ظاهرة وزينة باطنة لا يراها إلا الزوج ، فأما الزينة الظاهرة فالثياب ، وأما الزينة الباطنة فالكحل والسوار والخاتم . ولفظ ابن جرير : فالظاهرة منها : الثياب ، وما خفى : الخلخالان والقرطان والسواران . وأخرج ابن المنذر عن أنس فى قوله : ﴿إلا ما ظهر منها﴾ قال : الكحل والخاتم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس : ﴿ولا يبدین زینتهن إلا ما ظهر منها﴾ قال : الكحل والخاتم والقرط والقلادة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه قال : هو خضاب الكف والخاتم . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد عن ابن عمر قال : الزينة الظاهرة : الوجه والكفان . وأخرج ابن عباس قال : إلا ما ظهر منها : وجهها وكفاها والخاتم . وأخرج أيضا عنه قال : رقعة الوجه وباطن الكف . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن عائشة ؛ إنها سئلت عن الزينة الظاهرة قالت : القلب والفتح وضمت طرف كمها . وأخرج

(١) أحمد ٤، ٣/٥ ، وعلقه البخارى ٣٨٥/١ وأبو داود فى اللباس (٤٠١٧) . والترمذى فى الأدب (٢٧٦٩) وقال : « هذا حديث حسن » وابن ماجه فى النكاح (١٩٢٠) .

(٢) أحمد ٣١٧/٢ ، ٣٢٩ ، والبخارى فى الاستئذان (٦٣٤٣) وفى القدر (٦٦١٢) ومسلم فى القدر (٢٦٥٧/٢٠ ، ٢١) وأبو داود فى النكاح (٢١٥٢) .

(٣) صححه الحاكم ٣١٤/٤ وقال الذهبى : « فيه إسحاق وإبراهيم ، وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفه » .

أبو داود وابن مردويه والبيهقي عن عائشة : أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا » ، وأشار إلى وجهه وكفه ^(١) . قال أبو داود وأبو حاتم الرازي : هذا مرسل لأنه من طريق خالد بن دريك عن عائشة ولم يسمع منها . وأخرج البخاري وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن عائشة : قالت : رحم الله نساء المهاجرات الأولات لما أنزل الله : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن أكثف مروطهن فاختمن به ^(٢) . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنها بلفظ : أخذ النساء أزهرن فشققنها من قبل الحواشي فاختمن بها ^(٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا يبدین زینتهن إلا ما ظهر منها ﴾ والزينة الظاهرة : الوجه وكحل العينين وخضاب الكف والخاتم ، فهذا تظهره في بيتها لمن دخل عليها . ثم قال : ﴿ ولا يبدین زینتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ﴾ الآية ، والزينة التي تبديها لهؤلاء : قرطها وقلايتها وسوارها ، فأما خلخالها ومعضدها ونحرها وشعرها ، فإنها لا تبديه إلا لزوجها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : ﴿ أو نسائهن ﴾ قال : هن المسلمات ، لا تبديه لليهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح ، وما يحرم أن يراه إلا محرم . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب : أنه كتب إلى أبي عبيدة : أما بعد ، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه من قبلك عن ذلك ، فإنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها ^(٤) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : لا بأس أن يرى العبد شعر سيده . وأخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقي عن أنس ؛ أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعد قد وهب لها وعلى فاطمة ثوب إذا قنع به رأسها لم يبلغ رجلها ، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك » ^(٥) . وإسناده في سنن أبي داود هكذا : حدثنا محمد بن عيسى حدثنا أبو جميع سالم بن دينار عن ثابت عن أنس فذكره . وأخرج عبد الرزاق وأحمد عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان لإحدكن مكاتب ، وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه » ^(٦) . وإسناده أحمد هكذا : حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن نيهان أن أم سلمة . . . فذكره .

(١) أبو داود في اللباس (٤١٠٤) والبيهقي ٨٦/٧ وفي سننه سعيد بن بشير قال ابن حجر : « ضعيف » تقريب التهذيب ٢٩٢/١ .

(٢) البخاري في التفسير (٤٧٥٨) وأبو داود في اللباس (٤١٠٢) والنسائي في التفسير (٣٨٣) وابن جرير ٩٤/١٨ والبيهقي ٨٨/٧ .

(٣) ابن جرير ٩٤/١٨ ، وصححه الحاكم ١٩٤/٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

(٤) البيهقي ٩٥/٧ . (٥) أبو داود في اللباس (٤١٠٦) والبيهقي ٩٥/٧ .

(٦) أحمد ٣٠٨/٦ .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ أو التابعين غير أولى الأربة من الرجال ﴾ قال : هذا الذي لا تستحي منه النساء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في الآية قال : هذا الرجل يتبع القوم وهو مغفل في عقله ، لا يكثر للنساء ولا يشتهي النساء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه في الآية قال : كان الرجل يتبع الرجل في الزمان الأول لا يغار عليه ولا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده ، وهو الأحق الذي لا حاجة له في النساء . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية قال : هو المخنث الذي لا يقوم زبه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن عائشة قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث ، فكانوا يدعون من غير أولى الأربة ، فدخل النبي ﷺ يوما وهو عند بعض نساءه وهو ينعت امرأة قال : إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان ، قال النبي ﷺ : « ألا أرى هذا يعرف ما هاهنا لا يدخلن عليكم » فحجوه (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا يضربن بأرجلهن ﴾ وهو أن تقرع الخلل بالآخر عند الرجال ، أو يكون في رجلها خلل فتحركهن عند الرجال ، فنهى الله عن ذلك ، لأنه من عمل الشيطان .

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٢) وَلَيْسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٤) .

لما أمر سبحانه بغض الأبصار وحفظ الفروج أرشد بعد ذلك إلى ما يحل للعباد من النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة وسكون دواعي الزنا ويسهل بعده غص البصر عن المحرمات وحفظ الفرج عما لا يحل ، فقال : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ الأيم : التى لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً ، والجمع أيامى والأصل أيام ، والأيم بتشديد الياء ، ويشمل الرجل والمرأة . قال أبو عمرو والكسائي : اتفق أهل اللغة على أن الأيم فى الأصل هى المرأة التى لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً . قال أبو عبيد : يقال : رجل أيم وامرأة أيم ، وأكثر ما يكون فى النساء ، وهو كالمستعار فى

(١) أحمد ١٥٢/٦ ومسلم فى السلام (٣٣/٢١٨١) وأبو داود فى اللباس (٤١٠٧) والنسائي فى الكبرى فى

عشرة النساء (٩٢٤٦) وابن جرير ٩٦/١٨ والبيهقي ٩٦/٧ .

الرجال ، ومنه قول أمية^(١) بن أبي الصلت :

لله در بني عليٍّ أيم منهم وناكح

ومنه أيضا قول الآخر :

لقد إمت حتى لامني كلَّ صاحب رجاء سليمي أن تأيم كما إمت

والخطاب في الآية للآلِياء . وقيل للأزواج ، والأوّل أرجح ، وفيه دليل على أن المرأة لا تنكح نفسها ، وقد خالف في ذلك أبوحنيفة .

واختلف أهل العلم في النكاح : هل مباح ، أو مستحب ، أو واجب ؟ فذهب إلى الأوّل الشافعي وغيره ، وإلى الثاني مالك وأبوحنيفة ، وإلى الثالث بعض أهل العلم على تفصيل لهم في ذلك ، فقالوا : إن خشي على نفسه الوقوع في المعصية وجب عليه وإلا فلا . والظاهر أن القائلين بالإباحة والاستحباب لا يخالفون في الوجوب مع تلك الخشية ، وبالجملة فهو مع عدمها سنة من السنن المؤكدة لقوله ﷺ في الحديث الصحيح بعد ترغيبه في النكاح : « ومن رغب عن ستي فليس مني »^(٢) ، ولكن مع القدرة عليه ، وعلى مؤنه كما سيأتى قريبا . والمراد بالأيامي هنا : الأحرار والحرائر ، وأما الممالك فقد بين ذلك بقوله : ﴿ والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ عبادكم ﴾ وقرأ الحسن : « عبيدكم » قال الفراء : ويجوز : « وإماءكم » بالنصب برده على الصالحين . والصلاح هو الإيمان . وذكر سبحانه الصلاح في الممالك دون الأحرار لأن الغالب في الأحرار الصلاح بخلاف الممالك ، وفيه دليل على أن المملوك لا يزوّج نفسه ، وإنما يزوّجه ماله . وقد ذهب الجمهور إلى أنه يجوز للسيد أن يكره عبده وأمته على النكاح . وقال مالك : لا يجوز . ثم رجع سبحانه إلى الكلام في الأحرار فقال : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ أى لا تمتنعوا من تزويج الأحرار بسبب فقر الرجل والمرأة أو أحدهما ، فإنهم إن يكونوا فقراء يغنهم الله سبحانه ويتفضل عليهم بذلك . قال الزجاج : حثّ الله على النكاح وأعلم أنه سبب لنفى الفقر ، ولا يلزم أن يكون هذا حاصلًا لكل فقير إذا تزوّج فإن ذلك مقيد بالمشيئة . وقد يوجد في الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوّجوا . وقيل : المعنى : إنه يغنيه بغنى النفس . وقيل : المعنى : إن يكونوا فقراء إلى النكاح يغنهم الله من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا . والوجه الأوّل أولى ، ويدل عليه قوله سبحانه : ﴿ وإن خفتن عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ [التوبة : ٢٨] . فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك ، وجملة : ﴿ والله واسع عليم ﴾ مؤكدة لما قبلها ومقرّرة لها ، والمراد أنه سبحانه ذو سعة لا يتقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده ، عليم بمصالح خلقه ، يغنى من يشاء ويفقر من يشاء .

(١) في المطبوعة : « أمية بنت أبو الصلت » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) أحمد ١٥٨/٢ والبخارى في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (٥/١٤٠٢) والنسائي ٦٠/٦ والدارمي

ثم ذكر سبحانه حال العاجزين عن النكاح بعد بيان جواز مناعتهم إرشادا لهم إلى ما هو الأولى فقال : ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا﴾ استعفّ : طلب أن يكون عفيفا ، أى ليطلب العفة عن الزنا والحرام من لا يجد نكاحا ، أى سبب نكاح ، وهو المال . وقيل : النكاح هنا ما تنكح به المرأة من المهر والتنفقة كاللحاف اسم لما يلتحف به ، واللباس اسم لما يلبس ، وقيد سبحانه هذا النهى بتلك الغاية ، وهى : ﴿حتى يغنيهم الله من فضله﴾ أى يرزقهم رزقا يستغنون به ويتمكنون بسببه من النكاح ، وفى هذه الآية ما يدل على تقييد الجملة الأولى ، وهى إن يكونوا فقراء يغنيهم الله بالمشيئة كما ذكرنا ، فإنه لو كان وعدا حتما لا محالة فى حصوله ؛ لكان الغنى والزواج متلازمين ، وحينئذ لا يكون للأمر بالاستعفاف مع الفقر كثير فائدة ، فإنه سيغنى عند تزوجه لا محالة ، فيكون فى تزوجه مع فقره تحصيل للغنى ، إلا أن يقال : إن هذا الأمر بالاستعفاف للعاجز عن تحصيل مبادئ النكاح ، ولا ينافى ذلك وقوع الغنى له من بعد أن ينكح ، فإنه قد صدق عليه أنه لم يجد نكاحا إذا كان غير واجد لأسبابه التى يتحصل بها ، وأعظمها المال .

ثم لما رغب سبحانه فى تزويج الصالحين من العبيد والإماء ، أرشد المالكين إلى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار فقال : ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم﴾ الموصول فى محل رفع على الابتداء ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على إضمار فعل يفسره ما بعده ، أى وكتبوا الذين يبتغون الكتاب . والكتاب : مصدر كاتب كالمكاتبة ، يقال : كاتب يكتب كتابا ومكاتبة ، كما يقال : قاتل يقاتل قتالا ومقاتلة . وقيل : الكتاب ها هنا اسم عين للكتاب الذى يكتب فيه الشيء ، وذلك لأنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتابا ، فيكون المعنى : الذين يطلبون كتاب المكاتبة . ومعنى المكاتبة فى الشرع : أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه منجما ، فإذا آداه فهو حرّ ، وظاهر قوله : ﴿فكاتبوهم﴾ أن العبد إذا طلب الكتابة من سيده وجب عليه أن يكتبه بالشرط المذكور بعده ، وهو : ﴿إن علمتم فيهم خيرا﴾ والخير هو القدرة على أداء ما كوتب عليه وإن لم يكن له مال . وقيل : هو المال فقط ، كما ذهب إليه مجاهد والحسن وعطاء والضحاك وطاوس ومقاتل . وذهب إلى الأوّل ابن عمر وابن زيد ، واختاره مالك ، والشافعى والفراء والزجاج . قال الفراء : يقول إن رجوتهم عندهم وفاء وتأدية للمال . وقال الزجاج : لما قال ﴿فيهم﴾ كان الأظهر الاكتساب ، والوفاء وأداء الأمانة . وقال النخعى : إن الخير : الدين والأمانة . وروى مثل هذا عن الحسن . وقال عبيدة السلمانى : إقامة الصلاة . قال الطحاوى : وقول من قال : إنه المال ، لا يصح عندنا ، لأن العبد مال لمولاه ، فكيف يكون له مال ؟ قال : والمعنى عندنا : إن علمتم فيهم الدين والصدق . قال أبو عمر بن عبد البرّ : من لم يقل : إن الخير هنا المال ، أنكر أن يقال : إن علمتم فيهم مالا ، وإنما يقال : علمت فيه الخير والصلاح والأمانة ، ولا يقال : علمت فيه المال . هذا حاصل ما وقع من الاختلاف بين أهل العلم فى الخير المذكور فى هذه الآية . وإذا تقرر لك هذا ، فاعلم أنه قد

ذهب ظاهر ما يقتضيه الأمر المذكور في الآية من الوجوب عكرمة وعطاء ومسروق وعمرو بن دينار والضحاك وأهل الظاهر ، فقالوا : يجب على السيد أن يكتب مملوكه إذا طلب منه ذلك وعلم فيه خيرا . وقال الجمهور من أهل العلم : لا يجب ذلك ، وتمسكوا بالإجماع على أنه لو سأل العبد سيده أن يبيعه من غيره لم يجب عليه ذلك ولم يجبر عليه ، فكذا الكتابة ؛ لأنها معاوضة . ولا يخفك أن هذه حجة واهية وشبهة داحضة ، والحق ما قاله الأولون ، وبه قال عمر بن الخطاب وابن عباس واختاره ابن جرير .

ثم أمر سبحانه الموالي بالإحسان إلى المكاتبين ، فقال : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ ففي هذه الآية الأمر للمالكين بإعانة المكاتبين على مال الكتابة ، إما بأن يعطوهم شيئا من المال أو بأن يحطوا عنهم مما كُتِبُوا عليه ، وظاهر الآية عدم تقدير ذلك بمقدار . وقيل : الثلث . وقيل : الربع . وقيل : العشر ، ولعل وجه تخصيص الموالي بهذا الأمر ، هو كون الكلام فيهم ، وسياق الكلام معهم فإنهم المأمورون بالكتابة . وقال الحسن والنخعي وبريدة : إن الخطاب بقوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ ﴾ لجميع الناس . وقال زيد بن أسلم : إن الخطاب للولاة بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظهم كما في قوله سبحانه : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [التوبة : ٦٠] . وللمكاتب أحكام معروفة إذا وفي ببعض مال الكتابة . ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالي إلى نكاح الصالحين من المماليك ، نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمائهم على الزنا فقال : ﴿ وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ ﴾ والمراد بالفتيات هنا : الإماء ، وإن كان الفتى والفتاة قد يطلقان على الأحرار في مواضع أخر . والبغاء : الزنا ، مصدر بغت المرأة تبغى بغاء : إذا زنت ، وهذا مختص بزنا النساء ، فلا يقال للرجل إذا زنا إنه بغى ، وشرط الله سبحانه هذا النهي بقوله : ﴿ إِنْ أَرَادَنْ تَحْصِينَ ﴾ لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادتهم للتحصن ، فإن من لم ترد التحصن لا يصح أن يقال لها : مكرهة على الزنا . والمراد بالتحصن هنا : التعفف والتزوج . وقيل : إن هذا القيد راجع إلى الأيامى . قال الزجاج والحسن بن الفضل : في الكلام تقديم وتأخير ، أى وأنكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم وإمائكم إن أردن تحصن . وقيل : هذا الشرط ملغى . وقيل : إن هذا الشرط باعتبار ما كانوا عليه ، فإنهم كانوا يكرهونهن وهن يردن التعفف ، وليس لتخصص النهي بصورة إرادتهن التعفف . وقيل : إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب ؛ لأن الغالب أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن ، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن ، وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه ، فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال ولا للحرام كما فيمن لا رغبة لها في النكاح ، والصغيرة فتوصف بأنها مكرهة على الزنا مع عدم إرادتها للتحصن ، فلا يتم ما قيل من أنه لا يتصور الإكراه إلا عند إرادة التحصن ، إلا أن يقال : إن المراد بالتحصن هنا مجرد التعفف ، وإنه لا يصدق على من كانت تريد الزواج أنها مريدة للتحصن وهو بعيد ، فقد قال الخبر ابن عباس : إن المراد بالتحصن التعفف والتزوج ، وتابعه على ذلك غيره .

ثم علل سبحانه هذا النهى بقوله: ﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما تكسبه الأمة بفرجها، وهذا التعليل أيضا خارج مخرج الغالب، والمعنى: أن هذا العرض هو الذى كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء فى الغالب، لأن إكراه الرجل لأتمته على البغاء لا لفائدة له أصلا لا يصدر مثله عن العقلاء، فلا يدل هذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها، إذا لم يكن مبتغيا بإكراهها عرض الحياة الدنيا. وقيل: إن هذا التعليل للإكراه هو باعتبار أن عاداتهم كانت كذلك، لا أنه مدار للنهى عن الإكراه لهنّ، وهذا يلاقى المعنى الأوّل ولا يخالفه ﴿وَمَنْ يَكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا مقرر لما قبله ومؤكّد له، والمعنى: أن عقوبة الإكراه راجعة إلى المكرهين لا إلى المكرهات، كما تدلّ عليه قراءة ابن مسعود وجابر بن عبد الله وسعيد بن جبير: «فإن الله غفور رحيم لهنّ». قيل: وفى هذا التفسير بعد، لأن المكره على الزنا غير آثمة. وأجيب بأنها وإن كانت مكرهة، فربما لا تخلو فى تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة إما بحكم الجبلّة البشرية، أو يكون الإكراه قاصرا عن حدّ الإلجاء المزيل للاختيار. وقيل: إن المعنى: فإن الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم لهنّ: إما مطلقا، أو بشرط التوبة.

ولما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام، شرع فى وصف القرآن بصفات ثلاث: الأولى: أنه آيات مبینات، أى واضحات فى أنفسهن أو موضحات، فتدخل الآيات المذكورة فى هذه الصورة دخولا أوليا. والصفة الثانية: كونه مثلا من الذين خلوا من قبل هؤلاء، أى مثلا كائنا من جهة أمثال الذين مضوا من القصص العجيبة، والأمثال المضروبة لهنّ فى الكتب السابقة، فإن العجب من قصة عائشة رضى الله عنها، هو كالعجب من قصة يوسف ومريم وما اتهما به، ثم تبين بطلانه وبراءتهما ملام الله عليهما. والصفة الثالثة: كونه موعظة ينتفع بها المتقون خاصة، فيقتدون بما فيه من الأوامر، وينتجرون عما فيه من النواهى. وأما غير المتقين، فإن الله قد ختم على قلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة عن سماع المواعظ، والاعتبار بقصص الذين خلوا، وفهم ما تشتمل عليه الآيات البينات.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى﴾ الآية قال: أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبتهم فيه، وأمرهم أن يزوّجوا أحرارهم وعبيدهم، ووعدهم فى ذلك الغنى فقال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَغْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر الصديق قال: أطيعوا الله فيما أمركم من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَغْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وأخرج عبد الرزاق فى المصنف وعبد بن حميد عن قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قال: ما رأيت كرجل لم يلتمس الغنى فى الباء، وقد وعد الله فيها ما وعد، فقال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَغْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبه عنه نحوه من طريق أخرى. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه. وأخرج البزار، والدارقطنى فى العلل، والحاكم وابن مردويه والديلمى من طريق عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنكحوا النساء، فإنهنّ يأتينكم

بالمال » (١) . وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو داود في مراسيله عن عروة مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولم يذكر عائشة وهو مرسل (٢) . وأخرج عبد الرزاق وأحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي وابن ماجه وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حقّ على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله » (٣) . وقد ورد في الترغيب في مطلق النكاح أحاديث كثيرة ليس هذا موضع ذكرها .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً ﴾ قال : ليتزوج من لا يجد فإن الله سيفنيه . وأخرج ابن السكن في معرفة الصحابة عن عبد الله ابن صبيح عن أبيه قال : كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى ، فسألته الكتابة فأبى ، فنزلت : ﴿ والذين يبتغون الكتاب ﴾ (٤) الآية . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن أنس ابن مالك قال : سألتني سيرين المكاتبه فأبيت عليه ، فأثنى عمر بن الخطاب فأقبل على بالدره وقال : كاتبه وتلا : ﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ فكاتبته . قال ابن كثير : إن إسناده صحيح . وأخرج أبو داود في المراسيل ، والبيهقي في سننه عن يحيى بن أبي كثير قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ قال : « إن علمتم فيهم حرقة ، ولا ترسلوهم كلا على الناس » (٥) . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس : ﴿ إن علمتم فيهم خيراً ﴾ قال : المال . وأخرج ابن مردويه عن عليّ مثله . وأخرج البيهقي عن ابن عباس في الآية قال : أمانة ووفاء . وأخرج عنه أيضاً قال : إن علمت مكاتبك بقضيك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عنه في الآية قال : إن علمتم لهم حيلة ، ولا تلقوا مؤنتهم على المسلمين ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ يعنى ضعوا عنهم من مكاتبتهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن نافع قال : كان ابن عمر يكره أن يكتب عبده إذا لم تكن له حرقة ويقول : يطعمنى من أوساخ الناس . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال : قال ابن عباس في قوله : ﴿ وآتوهم من مال الله ﴾ الآية : أمر المؤمنين أن يعينوا في الرقاب . وقال عليّ بن أبي طالب : أمر الله السيد أن يدع للمكاتب الربع من ثمنه . وهذا تعليم من الله ليس بفريضة ، ولكن فيه أجر . وأخرج ابن أبي شيبة

(١) كشف الأستار في النكاح (١٤٠٢) وصححه الحاكم ١٦١/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

(٢) ابن أبي شيبة ١٢٧/٤ ، وأبو داود في المراسيل (٢٠٣) وقال المحقق : « رجاله ثقات ، رجال الشيخين » .

(٣) أحمد ٢٥١/٢ والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٥) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائي ١٦/٦ ،

٦١/٦ ، وابن ماجه في العتق (٢٥١٨) وابن حبان في النكاح (٤٠١٩) وصححه الحاكم ١٦٠/٢ على شرط

مسلم ووافقه الذهبي ، والبيهقي في النكاح ٧٨/٧ .

(٤) الواحدي في أسباب النزول : ١٨٦ .

(٥) أبو داود في المراسيل (١٨٥) والبيهقي ٣١٧/١٠ .

وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والرويانى فى مسنده ، والضياء المقدسى فى المختارة عن بريدة فى الآية قال : حث الناس عليه أن يعطوه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة ومسلم والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى من طريق أبى سفيان عن جابر بن عبد الله قال : كان عبد الله بن أبى يقول لجارية له : اذهبي فابغينا شيئا ، وكانت كارهة ، فأنزل الله : « ولا تکرهوا فتياتکم على البغاء إن أردن تحصننا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يکرههن فإن الله من بعد إکراههن لهنّ غفور رحيم » هكذا كان يقرؤها ^(١) . وذكر مسلم فى صحيحه عن جابر أن جارية لعبد الله بن أبى يقال لها مسيكة ، وأخرى يقال لها أميمة ، فكان يريد هما على الزنا ، فشكنا ذلك إلى النبی ﷺ ، فأنزل الله : « ولا تکرهوا فتياتکم » ^(٢) الآية . وأخرج البخاري وابن مردويه عن أنس نحو حديث جابر الأول . وأخرج ابن مردويه عن على بن أبى طالب فى الآية قال : كان أهل الجاهلية يبغين إماءهم ، فنهوا عن ذلك فى الإسلام . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانوا فى الجاهلية يکرهون إماءهم على الزنا ، يأخذون أجورهن فنزلت الآية . وقد ورد النهى منه ﷺ عن مهر البغى وكسب الحجام وحلوان الكاهن ^(٣) .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾

لما بين سبحانه من الأحكام ما بين ، أردف ذلك بكونه سبحانه فى غاية الكمال فقال : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ وهذه الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها ، والاسم الشريف مبتدأ ، و﴿نور السموات والأرض﴾ خبره ، إما على حذف مضاف ، أى ذو نور السموات والأرض ، أو لكون المراد المبالغة فى وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله وظهور عدله وبسطه أحكامه ، كما

(١) ابن أبى شيبة ٣٧٦/٤ ومسلم فى التفسير (٢٦/٣٠٢٩) وابن جرير ١٠٣/١٨ والبيهقى ٩/٨ .

(٢) مسلم فى التفسير (٢٧/٣٠٢٩) .

(٣) من ذلك ما أخرجه أحمد ١١٨/٤ والبخاري فى البيوع (٢٢٣٧) ومسلم فى المساقاة (٣٩/١٥٦٧) عن أبى مسعود الأنصارى ؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغى وحلوان الكاهن .

يقال : فلان نور البلد ، وقمر الزمن ، وشمس العصر ، ومنه قول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا ظهرت لم يبقَ فيها كوكب

وقول الآخر :

هلا قصدت من البلاد لمفضل قمر القبائل خالد بن يزيد

ومن ذلك قول الشاعر :

إذا سار عبد الله من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها

وقول الآخر :

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا

ومعنى النور فى اللغة : الضياء ، وهو الذى يبين الأشياء ويرى الأبصار حقيقة ما تراه ، فيجوز إطلاق النور على الله سبحانه على طريقة المدح ، ولكونه أوجد الأشياء المنورة وأوجد أنوارها ونورها ، ويدل على هذا المعنى قراءة زيد بن على وأبى جعفر وعبد العزيز المكى : « الله نور السموات والأرض » على صيغة الفعل الماضى ، وفاعله ضمير يرجع إلى الله ، والسموات مفعوله ؛ فمعنى « الله نور السموات والأرض » : أنه سبحانه صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلها وكمال تدبيره عز وجل لمن فيهما ، كما يقال : الملك نور البلد ، هكذا قال الحسن ومجاهد والأزهري والضحاك والقرطبي وابن عرفة وابن جرير وغيرهم ، ومثله قول الشاعر :

وأنت لنا نور وغيث وعصمة ونبت لمن يرجو نذاك وريق

وقال هشام الجواليقي وطائفة من المجسمة : إنه سبحانه نور لا كالأنوار ، وجسم لا كالأجسام ، وقوله : « مثل نوره » مبتدأ وخبره : « كمشكاة » أى صفة نوره الفائض عنه ، الظاهر على الأشياء كمشكاة ، والمشكاة الكوة فى الحائط غير النافذة ، كذا حكاه الواحدي عن جميع المفسرين ، وحكاه القرطبي عن جمهورهم^(١) . ووجه تخصيص المشكاة أنها أجمع للضوء الذى يكون فيه من مصباح أو غيره ، وأصل المشكاة : الوعاء يجعل فيه الشيء . وقيل : المشكاة عمود القنديل الذى فيه الفتيلة . وقال مجاهد : هى القنديل . والأول أولى ، ومنه قول الشاعر :

كأن عينيه مشكاتان فى جحر

ثم قال : « فيها مصباح » وهو السراج « المصباح فى زجاجة » قال الزجاج : النور فى الزجاج وضوء النار أبين منه فى كل شئ وضوؤه يزيد فى الزجاج ،

ووجه ذلك : أن الزجاج جسم شفاف يظهر فيه النور أكمل ظهور . ثم وصف الزجاج فقال : ﴿ الزجاج كأنها كوكب درى ﴾ أى منسوب إلى الدرّ لكون فيه من الصفاء والحسن ما يشابه الدرّ . وقال الضحاك : الكوكب الدرّى : الزهرة . قرأ أبو عمرو : « درى » بكسر الدال . قال أبو عمرو : لم أسمع أعرابيا يقول : إلا كأنه كوكب درى بكسر الدال ، أخذوه من درأت النجوم تدرأ : إذا اندفعت . وقرأ حمزة بضم الدال مهموزا ، وأنكره الفراء والزجاج والمبرد . وقال أبو عبيد : إن ضمنت الدال وجب أن لا تهمز ، لأنه ليس فى كلام العرب . والدرارى : هى المشهورة من الكواكب كالمشترى والزهرة والمريخ وما يضاهاها من الثوابت . ثم وصف المصباح بقوله : ﴿ يوقد من شجرة مباركة ﴾ و« من » هذه : هى الابتدائية ، أى ابتداء إيقاد المصباح منها . وقيل : هو على تقدير مضاف ، أى يوقد من زيت شجرة مباركة ، والمباركة الكثيرة المنافع . وقيل : المنماء ، والزيتون من أعظم الشمارئ ، ومنه قول أبى طالب يرمى مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس :

ليت شعرى مسافر بن أبى عمرو وليت يقولها المحزون
بورك الميت الغريب كما بورك نبع الرمان والزيتون

قيل : ومن بركتها أن أغصانها تورق من أسفلها إلى أعلاها ، وهى إدام ودهان ودباغ ووقود ، وليس فيها شيء إلا وفيه منفعة ، ثم وصفها بأنها ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ .

وقد اختلف المفسرون فى معنى هذا الوصف ، فقال عكرمة وقتادة وغيرهم : إن الشرقية هى التى تصيبها الشمس إذا شرقت ، ولا تصيبها إذا غربت . والغربية هى التى تصيبها إذا غربت ، ولا تصيبها إذا شرقت . وهذه الزيتونىة هى فى صحراء بحيث لا يسترها عن الشمس شيء لا فى حال شروقها ولا فى حال غروبها ، وما كانت من الزيتون هكذا فثمرها أجود . وقيل : إن المعنى : إنها شجرة فى دوحة قد أحاطت بها ، فهى غير منكشفة من جهة الشرق ، ولا من جهة الغرب ، حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس . قال ابن عطية : وهذا لا يصح عن ابن عباس ، لأن الثمرة التى بهذه الصفة يفسد جناها ، وذلك مشاهد فى الوجود . ورجح القول الأوّل الفراء والزجاج . وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا ، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره ولو كانت فى الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية . قال الثعلبى : قد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا ، لأن قوله : ﴿ زيتونة ﴾ بدل من قوله : ﴿ شجرة ﴾ . قال ابن زيد : إنها من شجر الشام ، فإن الشام لا شرقى ولا غربى ، والشام هى الأرض المباركة . وقد قرئ : « توقد » بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الزجاجاة دون المصباح ، وبها قرأ الكوفيون . وقرأ شيبة ونافع وأيوب وسلام وابن عامر وأهل الشام وحفص ﴿ يوقد ﴾ بالتحية مضمومة وتخفيف القاف وضم الدال . وقرأ الحسن والسلمى وأبو عمرو بن العلاء وأبو جعفر « توقد » بالفوقية مفتوحة

وفتح الواو وتشديد القاف وفتح الدال على أنه فعل ماضٍ من توقد يتوقد ، والضمير في هاتين القراءتين راجع إلى المصباح . قال النحاس : وهاتان القراءتان متقاربتان لأنهما جميعا للمصباح ، وهو أشبه بهذا الوصف ؛ لأنه الذى ينير ويضيء ، وإنما الزجاجة وعاء له . وقرأ نصر بن عاصم بقراءة أبى عمرو ومن معه إلا أنه ضم الدال على أنه فعل مضارع ، وأصله تتوقد .

ثم وصف الزيتونة بوصف آخر فقال : ﴿ يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ تمسه ﴾ بالفوقية ، لأن النار مؤنثة . قال أبو عبيد : إنه لا يعرف إلا هذه القراءة . وحكى أبو حاتم أن السدى روى عن أبى مالك عن ابن عباس أنه قرأ : « يمسسه » بالتحية لكون تأنيث النار غير حقيقى . والمعنى : أن هذا الزيت فى صفائه وإنارته يكاد يضىء بنفسه من غير أن تمسه النار أصلا ، وارتفاع ﴿ نور ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو نور ، و﴿ على نور ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لنور مؤكدة له ، والمعنى : هو نور كائن على نور . قال مجاهد : والمراد النار على الزيت . وقال الكلبي : المصباح نور ، والزجاجة نور . وقال السدى : نور الإيمان ونور القرآن ﴿ يهدى الله لنوره من يشاء ﴾ من عباده ، أى هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ، وليس المراد بالهداية هنا مجرد الدلالة ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ أى يبين الأشياء بأشباهها ونظائرها تقريبا لها إلى الأفهام وتسهيلا لإدراكها ؛ لأن إبراز المعقول فى هيئة المحسوس وتصويره بصورته بزيده وضوحا وبيانا ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ لا يغيب عنه شىء من الأشياء معقولا كان أو محسوسا ، ظاهرا أو باطنا .

واختلف فى قوله : ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ بما هو متعلق ؛ فقيل : متعلق بما قبله ، أى كمشكاة فى بعض بيوت الله وهى المساجد ، كأنه قيل : مثل نوره كما ترى فى المسجد نور المشكاة التى من صفتها كيت وكيت . وقيل : متعلق بمصباح . وقال ابن الأثير : سمعت أبا العباس يقول : هو حال للمصباح والزجاجة والكوكب ، كأنه قيل : وهى فى بيوت ، وقيل : متعلق بتوقد ؛ أى توقد فى بيوت ، وقد قيل : متعلق بما بعده ، وهو ﴿ يسبح ﴾ ، أى يسبح له رجال فى بيوت ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ فيها ﴾ تكريرا كقولك : زيد فى الدار جالس فيها . وقيل : إنه منفصل عما قبله ، كأنه قال الله : فى بيوت أذن الله أن ترفع . قال الحكيم الترمذى : وبذلك جاءت الأخبار أنه من جلس فى المسجد فإنما يجالس ربه . وقد قيل : على تقدير تعلقه بمشكاة أو بمصباح أو بتوقد . ما الوجه فى توحيد المصباح والمشكاة وجمع البيوت ؟ ولا تكون المشكاة الواحدة ولا المصباح الواحد إلا فى بيت واحد . وأجيب بأن هذا من الخطاب الذى يفتح أوله بالتوحيد ، ويختتم بالجمع كقوله سبحانه : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء ﴾ [الطلاق : ١] ونحوه . وقيل : معنى ﴿ فى بيوت ﴾ : فى كل واحد من البيوت ، فكأنه قال : فى كل بيت . أو فى كل واحد من البيوت . واختلف الناس ، على أقوال : الأول : أنها المساجد ، وهو قول مجاهد والحسن وغيرهما . الثانى : أن المراد بها بيوت بيت المقدس ، روى ذلك عن الحسن .

الثالث : أنها بيوت النبي ﷺ ، روى عن مجاهد . الرابع : هي البيوت كلها ، قاله عكرمة . الخامس : أنها المساجد الأربعة : الكعبة ، ومسجد قباء ، ومسجد المدينة ، ومسجد بيت المقدس ، قاله ابن زيد . والقول الأول أظهر لقوله : ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ والباء من بيوت تضم وتنكسر كل ذلك ثابت في اللغة ، ومعنى ﴿ أذن الله أن ترفع ﴾ : أمر وقضى ، ومعنى ﴿ ترفع ﴾ : تبنى ، قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ [البقرة : ١٢٧] . وقال الحسن البصري وغيره : معنى ترفع تعظم ويرفع شأنها وتظهر من الأنفاس والافتقار ، ورجحه الزجاج . وقيل : المراد بالرفع هنا مجموع الأمرين ، ومعنى ﴿ يذكر فيها اسمه ﴾ : كل ذكر لله عز وجل . وقيل : هو التوحيد ، وقيل : المراد تلاوة القرآن ، والأول أولى .

﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر : « يسبح » بفتح الباء الموحدة مبنيا للمفعول ، وقرأ الباقون بكسرها مبنيا للفاعل إلا ابن وثاب وأبا حيوه فإنهما قرآ بالياء الفوقية وكسر الموحدة ، فعلى القراءة الأولى يكون القائم مقام الفاعل أحد المجرورات الثلاثة ، ويكون رجال مرفوعاً على أحد وجهين : إما بفعل مقدر ، وكأنه جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : من يسبحه ؟ فقيل : يسبحه رجال . الثاني : أن رجال مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وعلى القراءة الثانية يكون رجال فاعل يسبح ، وعلى القراءة الثالثة يكون الفاعل أيضاً رجال ، وإنما أنث الفعل لكون جمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في بعض الأحوال . واختلف في هذا التسييح ما هو ؟ فالأكثر حملوه على الصلاة المفروضة ، قالوا : الغدو : صلاة الصبح ، والآصال : صلاة الظهر ، والعصر ، والعشاءين ، لأن اسم الآصال يشملها ، ومعنى بالغدو والآصال : بالغداة والعشي . وقيل : صلاة الصبح والعصر . وقيل : المراد صلاة الضحى . وقيل : المراد بالتسييح هنا معناه الحقيقي ، وهو تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به في ذاته وصفاته وأفعاله ، ويؤيد هذا ذكر الصلاة والزكاة بعده ، وهذا أرجح مما قبله ، لكونه المعنى الحقيقي مع وجود دليل يدل على خلاف ما ذهب إليه الأولون ، وهو ما ذكرناه .

﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ هذه الجملة صفة لرجال ، أى لا تشغلهم التجارة والبيع عن الذكر ؛ وخص التجارة بالذكر ؛ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الذكر . وقال الفراء : التجارة لأهل الجلب ، والبيع ما باعه الرجل على بدنه ، وخص قوم التجارة ها هنا بالشراء لذكر البيع بعدها ، وبمثل قول الفراء قال الواقدى ، فقال : التجار : هم الجلاب المسافرون ، والباعة : هم المقيمون ، ومعنى ﴿ عن ذكر الله ﴾ : هو ما تقدم في قوله : ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ وقيل : المراد : الأذان . وقيل : عن ذكره بأسمائه الحسنی ، أى يوحدهونه ويمجدونه . وقيل : المراد عن الصلاة ، ويردّه ذكر الصلاة بعد الذكر هنا . والمراد بإقام الصلاة : إقامتها لمواقيتها من غير تأخير ، وحذفت التاء ؛ لأن الإضافة تقوم مقامها في ثلاث كلمات جمعها الشاعر في قوله :

ثلاثة تحذف تأآتها مضافة عند جمع النحاة
وهى إذا شئت أبو عذرها وليت شعرى وإقام الصلاة

وأشدد الفراء فى الاستشهاد للحذف المذكور فى هذه الآية قول الشاعر :

إن الخليط أجدوا البين وانجردوا وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا

أى عدة الأمر ، وفى هذا البيت دليل على أن الحذف مع الإضافة لا يختص بتلك الثلاثة المواضع . قال الزجاج : وإنما حذفت الهاء لأنه يقال : أقمت الصلاة إقامة ، وكان الأصل : إقواما ، ولكن قلبت الواو ألفا فاجتمعت ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين فبقى أقمت الصلاة إقاما ، فأدخلت الهاء عوضا من المحذوف وقامت الإضافة هاهنا فى التعويض مقام الهاء المحذوفة ، وهذا إجماع من النحويين . انتهى . وقد احتاج من حمل ذكر الله على الصلاة المفروضة أن يحمل إقامة الصلاة على تأديتها فى أوقاتها فرارا من التكرار ولا ملجئ إلى ذلك ، بل يحمل الذكر على معناه الحقيقى كما قدّمنا . والمراد بالزكاة المذكورة هى : المفروضة ، وقيل : المراد بالزكاة : طاعة الله والإخلاص ، إذ ليس لكل مؤمن مال .

﴿ يخافون يوما ﴾ أى يوم القيامة ، وانتصابه على أنه مفعول للفعل لا ظرفا له ، ثم وصف هذا اليوم بقوله : ﴿ تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ أى تضطرب وتتحوّل ، قيل : المراد بتقلب القلوب : انتزاعها من أماكنها إلى الخناجر فلا ترجع إلى أماكنها ولا تخرج ، والمراد بتقلب الأبصار هو : أن تصير عمياء بعد أن كانت مبصرة . وقيل : المراد بتقلب القلوب : أنها تكون متقلبة بين الطمع فى النجاة والخوف من الهلاك ، وأما تقلب الأبصار فهو : نظرها من أى ناحية يؤخذون ، وإلى أى ناحية يصيرون . وقيل : المراد تحوّل قلوبهم وأبصارهم عما كانت عليه من الشك إلى اليقين ، ومثله قوله : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ [ق : ٢٢] . فما كان يراه فى الدنيا غيا يراه فى الآخرة رشدا . وقيل : المراد : القلب على جمر جهنم ، وقيل غير ذلك .

﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ﴾ متعلق بمحذوف ، أى يفعلون ما يفعلون من التسبيح والذكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ، أى أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعدهم من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله وإلى سبعمئة ضعف . وقيل : المراد بما فى هذه الآية : ما يتفضل سبحانه به عليهم زيادة على ما يستحقونه ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ فإن المراد به : التفضل عليهم بما فوق الجزاء الموعود به ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ أى من غير أن يحاسبه على ما أعطاه ، أو أن عطاءه سبحانه لا نهاية له ، والجملة مقرّرة لما سبقها من الوعد بالزيادة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ قال : يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما . وأخرج الفريانى عنه فى قوله : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ مثل نوره الذى أعطاه المؤمن ﴿ كمشكاة ﴾ وقال فى تفسير : ﴿ زيتونة لا شرقية ولا

غربية ﴿ إنها التي في سفح جبل لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت ﴾ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار نور على نور ﴿ فذلك مثل قلب المؤمن نور على نور . وأخرج عبد بن حميد ، وابن الأثير في المصاحف عن الشعبي قال : في قراءة أبي بن كعب : « مثل نور المؤمن كمشكاة » . وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في الآية قال : يقول : مثل نور من آمن بالله كمشكاة ، وهي الكوة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه : ﴿ مثل نوره ﴾ قال : هي خطأ من الكاتب هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة ، قال : مثل نور المؤمن كمشكاة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضا : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ قال : هادي أهل السموات والأرض ﴿ مثل نوره ﴾ : مثل هداء في قلب المؤمن ﴿ كمشكاة ﴾ يقول : موضع الفتيلة كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوءه ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور ، وفي إسناده على بن أبي طلحة ، وفيه مقال .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي بن كعب : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره ﴾ قال : هو المؤمن الذي قد جعل الإيمان والقرآن في صدره فضرب الله مثله ، فقال : ﴿ نور السموات والأرض مثل نوره ﴾ فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن ، فقال : مثل نور من آمن به ، فكان أبي بن كعب يقرؤها : « مثل نور من آمن به » فهو المؤمن ، جعل الإيمان والقرآن في صدره ﴿ كمشكاة ﴾ قال : فصدر المؤمن المشكاة ﴿ فيها مصباح المصباح ﴾ : النور ، وهو القرآن والإيمان الذي جعل في صدره ﴿ في زجاجة ﴾ و ﴿ الزجاج ﴾ قلبه ﴿ كأنها كوكب دري ﴾ يقول : كوكب مضيء ﴿ يوقد من شجرة مباركة ﴾ والشجرة المباركة : أصل المبارك : الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له ﴿ زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾ قال : فمثله كمثل شجرة التفت بها الشجر ، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت ، لا إذا طلعت ولا إذا غربت ، فكذلك هذا المؤمن قد أجبر من أن يضل به شيء من الفتن . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن اليهود قالوا لمحمد : كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ﴾ المشكاة كوة البيت فيها مصباح ، وهو السراج يكون في الزجاج ، وهو مثل ضربه الله لطاعته ، فسمى طاعته نورا ، ثم سماها أنواعا شتى ^(١) ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ قال : وهي وسط الشجر لا تنالها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت ، وذلك أجود الزيت ﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾ بغير نار ﴿ نور على نور ﴾ يعني بذلك إيمان العبد وعلمه ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ وهو مثل المؤمن .

وأخرج الطبراني وابن عدى وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر في قوله : ﴿ كمشكاة فيها مصباح ﴾ قال : المشكاة جوف محمد ﷺ ، والزجاجة قلبه ، والمصباح : النور الذى فى قلبه ﴿ يوقد من شجرة مباركة ﴾ الشجرة : إبراهيم ﴿ زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾ لا يهودية ولا نصرانية ، ثم قرأ ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران : ٦٧] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن شمر بن عطية قال : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار ، : فقال : حدثنى عن قول الله : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره ﴾ قال : مثل نور محمد ﷺ كمشكاة قال : المشكاة : الكوة ضربها الله مثلا لقمة فيها مصباح ، والمصباح قلبه ﴿ المصباح فى زجاجة ﴾ والزجاجة : صدره ﴿ كأنها كوكب درى ﴾ شبه صدر محمد ﷺ بالكوكب الدرى ، ثم رجع المصباح إلى قلبه فقال : ﴿ يوقد من شجرة مباركة ... يكاد زيتها يضىء ﴾ قال : يكاد محمد ﷺ يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي ، كما يكاد الزيت أن يضىء ولو لم تمسه نار .

وأقول : إن تفسير النظم القرآنى بهذا ونحوه مما تقدم عن أبى بن كعب وابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم ليس على ما تقتضيه لغة العرب ، ولا ثبت عن رسول الله ﷺ ما يجوز العدول عن المعنى العربى إلى هذه المعانى التى هى شبيهة بالألغاز والتعمية ، ولكن هؤلاء الصحابة ومن وافقهم ممن جاء بعدهم استبعدوا تمثيل نور الله سبحانه بنور المصباح فى المشكاة ، ولهذا قال ابن عباس : هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة كما قدمنا عنه ، ولا وجه لهذا الاستبعاد . فإننا قد قدمنا فى أوّل البحث ما يرفع الإشكال ويوضح ما هو المراد على أحسن وجه وأبلغ أسلوب ، وعلى ما تقتضيه لغة العرب ويفيده كلام الفصحاء ، فلا وجه للعدول عن الظاهر ، لا من كتاب ولا من سنة ولا من لغة . وأما ما حكى عن كعب الأحبار فى هذا كما قدمنا ، فإن كان هو سبب عدول أولئك الصحابة الأجلاء عن الظاهر فى تفسير الآية ، فليس مثل كعب رحمه الله ممن يقتدى به فى مثل هذا . وقد نبهناك فيما سبق أن تفسير الصحابى إذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب كما يقع ذلك كثيرا ، فلا تقوم به الحجة ولا يسوغ لأجله العدول عن التفسير العربى ، نعم إن صحت قراءة أبى بن كعب ، كانت هى المستند لهذه التفسير المخالفة للظاهر ، وتكون كالزيادة المينة للمراد ، وإن لم تصح فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور من السبعة وغيرهم ممن قبلهم ومن بعدهم هو المتعين .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ قال : هى المساجد تكرم وينهى عن اللغو فيها ، ويذكر فيها اسم الله ، يتلى فيها كتابه ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ صلاة الغداة وصلاة العصر ، وهما أوّل ما فرض الله من الصلاة فأحب أن يذكرهما ويذكر بهما عباده . وقد ورد فى تعظيم المساجد وتزيينها عن القذر واللغو وتنظيفها وتطهيرها أحاديث ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج ابن أبى شيبه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : إن صلاة الضحى لفى القرآن وما يغوص عليها إلا غوّاص فى قوله : ﴿ فى بيوت

أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴿٣٩﴾ . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ في قوله : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ قال : هم الذين يضربون في الأرض يتغنون من فضل الله . وأخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ قال : هم الذين يتغنون من فضل الله ﴿٤٠﴾ . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية ، قال : كانوا رجالا يتغنون من فضل الله يشترون ويبيعون ، فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما في أيديهم وقاموا إلى المسجد فصلوا . وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم ، والبيهقي في الشعب عنه في الآية ، قال : ضرب الله هذا المثل قوله : ﴿ كمشكاة ﴾ لأولئك القوم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وكانوا أثجر الناس وأبيعهم ، ولكن لم تكن تلهيهم تجارتهم ولا بيعهم عن ذكر الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا عن ذكر الله قال : عن شهود الصلاة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ابن أبي حاتم عن ابن عمر . أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فأغلقت حوائثهم ، ثم دخلوا المسجد ، فقال ابن عمر فيهم نزلت : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني ، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود أنه رأى ناسا من أهل السوق سمعوا الأذان فتركوا أمتعتهم ، فقال : هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ . وأخرج هناد بن السرى في الزهد وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، ومحمد بن نصر في الصلاة عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيد واحد يسمعون الداعي وينفذهم البصر ، فيقوم مناد فينادي : أين الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء ؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ؛ ثم يعود فينادي : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ؛ ثم يعود فينادي : ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يقوم سائر الناس فيحاسبون » . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر مرفوعا نحوه ﴿٢﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَافَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) الديلمي (٣٢٨٤) .

(٢) صححه الحاكم ٣٩٩/٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب عن الحسن مرسلًا (٦٨٢) وفي إسناده جهالة .

وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا
فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

لما ذكر سبحانه حال المؤمنين وما يؤول إليه أمرهم ذكر مثلاً للكافرين فقال : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ﴾ المراد بالأعمال هنا : هي الأعمال التي من أعمال الخير كالصدقة والصلة وفكّ العاني وعمارة البيت وسقاية الحاج . والسراب : ما يرى في المقاويز من لمعان الشمس عند اشتداد حرّ النهار على صورة الماء في ظنّ من يراه ، وسمى سراباً لأنه يسرب ، أى يجرى كالماء ؛ يقال : سرب الفحل ، أى مضى وسار فى الأرض ، ويسمى : الآل أيضاً . وقيل : الآل : هو الذى يكون ضحى كالماء ، إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين السماء والأرض ، قال امرؤ القيس :

ألم انض المطى بكلّ خرق أمقّ الطول لماع السراب

وقال آخر :

فلما كففتنا الحرب كانت عهودهم كلمع سراب بالفلا متألق

والقيعة : جمع قاع : وهو الموضع المنخفض الذى يستقرّ فيه الماء ، مثل جيرة وجار ، قاله الهروى . وقال أبو عبيد : قيعة وقاع واحد . قال الجوهري : القاع : المستوى من الأرض ، والجمع : أقوع وأقواع وقيعان ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ، والقيعة مثل القاع . قال : وبعضهم يقول هو جمع ﴿ يحسبه الظمآن ماء ﴾ هذه صفة ثانية لسراب ، والظمآن : العطشان ، وتخصيص الحساب بالظمآن مع كون الرّيان يراه كذلك ، لتحقيق التشبيه المبنى على الطمع ﴿ حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ أى إذا جاء العطشان ذلك الذى حسبه ماء لم يجده شيئاً مما قدره وحسبه ولا من غيره ، والمعنى : أن الكفار يعولون على أعمالهم التى يظنونها من الخير ويطمعون فى ثوابها ، فإذا قدموا على الله سبحانه لم يجدوا منها شيئاً ، لأن الكفر أحبطها ومحا أثرها ، والمراد بقوله : ﴿ حتى إذا جاءه ﴾ مع أنه ليس بشيء ، أنه جاء الموضع الذى كان يحسبه فيه . ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على زيادة حسرة الكفرة ، وأنه لم يكن قصارى أمرهم مجرد الخيبة

كصاحب السراب فقال : ﴿ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ أى وجد الله بالمرصاد فوفاه حسابه ، أى جزاء عمله ، كما قال امرؤ القيس :

فولى مدبرا يهوى حيثما وأيقن أنه لاقى الحسابا

وقيل : وجد وعد الله بالجزاء على عمله . وقيل : وجد أمر الله عند حشره . وقيل : وجد حكمه وقضاه عند المجيء . وقيل : عند العمل ، والمعنى متقارب . وقرأ مسلمة بن محارب : « بقیاه » بهاء مدورة كما يقال : رجل عزهاه . وروى عنه أنه قرأ : « بقیعات » بقاء مبسوبة . قيل : يجوز أن تكون الألف متولدة من إشباع العين على الأول ، وجمع قیعة على الثانى . وروى عن نافع وأبى جعفر وشيبة أنهم قرؤوا : « الظمان » بغير همز ، والمشهور عنهم الهمز .

﴿ أو كظلمات ﴾ معطوف على كسراب ، ضرب الله مثلا آخر لأعمال الكفار ، كما أنه تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات ، فهى أيضا تشبه الظلمات . قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن أعمال الكفار إن مثلت بما يوجد فمثلها كمثل السراب ، وإن مثلت بما يرى فهى كهذه الظلمات التى وصف . قال أيضا : إن شئت مثل بالسراب ، وإن شئت مثل بهذه الظلمات ، فأو : للإباحة حسبا تقدّم من القول فى ﴿ أو كصيب ﴾ [البقرة : ١٩] . قال الجرجاني : الآية الأولى فى ذكر أعمال الكفار ، والثانية فى ذكر كفرهم ، ونسق الكفر على أعمالهم لأنه أيضا من أعمالهم . قال القشيري : فعند الزجاج ، التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجرجاني ، لكفر الكفار ﴿ فى بحر لجى ﴾ اللجة معظم الماء ، والجمع : لجج وهو الذى لا يدرك لعمقه . ثم وصف سبحانه هذا البحر بصفة أخرى فقال : ﴿ يغشاه موج ﴾ أى يعلو هذا البحر موج فيستره ويغطيه بالكلية ، ثم وصف هذا الموج بقوله : ﴿ من فوقه موج ﴾ أى من فوق هذا الموج موج ثم وصف الموج الثانى فقال : ﴿ من فوقه سحب ﴾ أى من فوق ذلك الموج الثانى سحب ، فيجتمع حيثئذ عليهم خوف البحر وأمواجه والسحاب المرتفعة فوقه . وقيل : إن المعنى : يغشاه موج من بعده موج ، فيكون الموج يتبع بعضه بعضا حتى كأن بعضه فوق بعض ، والبحر أخوف ما يكون إذا توالى أمواجه ، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه زاد الخوف شدة ؛ لأنها تستر النجوم التى يهتدى بها من فى البحر ، ثم إذا أمطرت تلك السحاب وهبت الريح المعتادة فى الغالب عند نزول المطر تكاثفت الهموم وترادفت الغيوم ، وبلغ الأمر إلى الغاية التى ليس وراءها غاية ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ أى هى ظلمات ، متكاثفة مترادفة ، ففى هذه الجملة بيان لشدة الأمر وتعاضمه وقرأ ابن محيصة والبيزى : « سحب ظلمات » بإضافة سحب إلى ظلمات ، ووجه الإضافة أن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات ، فأضيف إليها لهذه الملابسة . وقرأ الباقر بالقطع والتنوين . ومن غرائب التفسير : أنه سبحانه أراد بالظلمات : أعمال الكافر ، وبالبحر اللجى : قلبه ، وبالموج فوق الموج : ما يغشى قلبه من

الجهل والشك والحيرة . والسحاب : الرين والختم والطبع على قلبه ، وهذا تفسير هو عن لغة العرب بمكان بعيد .

ثم بالغ سبحانه في هذه الظلمات المذكورة بقوله : ﴿ إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ وفاعل أخرج ضمير يعود على مقدّر دلّ عليه المقام ، أى إذا أخرج الحاضر فى هذه الظلمات أو من ابتلى بها . قال الزجاج وأبو عبيدة : المعنى : لم يرها ولم يكد . وقال الفراء : إن كاد زائدة . والمعنى : إذا أخرج يده لم يرها ، كما تقول : ما كدت أعرفه . وقال المبرد : يعنى لم يرها إلا من بعد الجهد . قال النحاس : أصبح الأقوال فى هذا أن المعنى : لم يقارب رؤيتها ، فإذا لم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة ، وجملة : ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ مقرّرة لما قبلها من كون أعمال الكفرة على تلك الصفة ، والمعنى : ومن لم يجعل الله له هداية فما له من هداية . قال الزجاج : ذلك فى الدنيا ، والمعنى : من لم يهده الله لم يهتد . وقيل : المعنى : من لم يجعل له نورا يمشى به يوم القيامة فما له من نور يهتدى به إلى الجنة .

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض ﴾ قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى سورة سبحان . والخطاب لكلّ من له أهلية النظر ، أو للرسول ﷺ ، وقد علمه من جهة الاستدلال ؛ ومعنى ﴿ ألم تر ﴾ : ألم تعلم ، والهمزة للتقرير ، أى قد علمت علما يقينا شبيها بالمشاهدة ، والتسبيح : التنزيه فى ذاته وأفعاله وصفاته عن كل ما لا يليق به ، ومعنى ﴿ من فى السموات والأرض ﴾ : من هو مستقرّ فيهما من العقلاء وغيرهم ، وتسبيح غير العقلاء ما يسمع من أصواتها ويشاهد من أثر الصنعة البديعة فيها . وقيل : إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء والتنزيه من غيرهم . وقد قيل : إن هذه الآية تشمل الحيوانات والجمادات ، وأن آثار الصنعة الإلهية فى الجمادات ناطق ومخبر باتصافه سبحانه بصفات الجلال والكمال وتنزّهه عن صفات النقص ، وفى ذلك تقرّيع للكفار وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التى من شأنها التسبيح لله سبحانه شركاء له يعبدونها كعبادته عزّ وجلّ . وبالجملة فإنه ينبغى حمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات على طريقة عموم المجاز . قرأ الجمهور ﴿ والطيور صافات ﴾ بالرفع للطيور والنصب لصافات على أن الطير معطوفة على من ، وصافات منتصب على الحال . وقرأ الأعرج : « والطيور » بالنصب على المفعول معه ، وصافات حال أيضا . قال الزجاج : وهى أجود من الرفع . وقرأ الحسن وخارجة عن نافع : « والطيور صافات » برفعهما على الابتداء والخبر ، ومفعول صافات محذوف ، أى أجنحتها . وخصّ الطير بالذكر مع دخولها تحت من فى السموات والأرض لعدم استمرار استقرارها فى الأرض وكثرة لبثها فى الهواء وهو ليس من السماء ولا من الأرض ، ولما فيها من الصنعة البديعة التى تقدر بها تارة على الطيران ، وتارة على المشى بخلاف غيرها من الحيوانات ، وذكر حالة من حالات الطير ، وهى كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها ، لأن هذه الحالة هى أغرب أحوالها ، فإن استقرارها فى الهواء مسبوحة من دون تحريك لأجنحتها ولا استقرار على الأرض من أعظم صنع الله الذى أتقن كلّ شيء .

ثم زاد فى البيان فقال : ﴿ كلّ قد علم صلاته وتسيّحه ﴾ أى كلّ واحد مما ذكر ، والضمير فى علم يرجع إلى كل ، والمعنى : أن كل واحد من هذه المسبحات لله قد علم صلاة المصلّى وتسيّح المسبح . وقيل : المعنى : أن كلّ مصلّ ومسبح قد علم صلاة نفسه وتسيّح نفسه . قيل : والصلاة هنا بمعنى التسيّح ، وكرّر للتأكيد ، والصلاة قد تسمى تسيّحا . وقيل : المراد بالصلاة هنا : الدعاء ، أى كل واحد قد علم دعاءه وتسيّحه . وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك ، أن صدور هذا التسيّح هو عن علم قد علمها الله ذلك وألهمها إليه ، لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية ، وفى ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه وعظيم شأنه ، كونه جعلها مسبحة له عالة بما يصدر منها غير جاهلة له ﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها ، أى لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسيّحهم ، ويجوز أن يكون الضمير فى ﴿ علم ﴾ لله سبحانه ، أى كلّ واحد من هذه المسبحة قد علم الله صلاته له وتسيّحه إياه والأوّل أرجح لاتفاق القراء على رفع كل ، ولو كان الضمير فى علم لله لكان نصب كل أولى . وذكر بعض المفسرين أن قراءة طائفة من القراء : علم على البناء للمفعول .

ثم بين سبحانه أن المبدأ منه والمعاد إليه فقال : ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ أى له لا غيره ﴿ وإليه المصير ﴾ لا إلى غيره . والمصير : الرجوع بعد الموت . وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى غير موضع . ثم ذكر سبحانه دليلا آخر من الآثار العلوية ، فقال : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ﴾ الإزجاء : السوق قليلا قليلا ، ومنه قول النابغة :

إنى أتيتك من أهلى ومن وطنى أزجى حشاشة نفس ما بها رمق

وقوله أيضا :

أسرت عليه من الجوزاء سارية يزجى السماك عليه جامد البرد

والمعنى : أنه سبحانه يسوق السحاب سوفا رقيقا إلى حيث يشاء ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أى بين أجزائه ، فيضم بعضه إلى بعض ويجمعه بعد تفرّقه ليقوى ويتصل ويكتف ، والأصل فى التآليف الهمز . وقرأ ورش وقالون عن نافع : « يولف » بالواو تخفيفا . والسحاب واحد فى اللفظ ، ولكن معناه جمع ، ولهذا دخلت « بين » عليه لأن أجزاءه فى حكم المفردات له . قال القراء : إن الضمير فى ﴿ بينه ﴾ راجع إلى جملة السحاب ، كما تقول : الشجر قد جلست بينه ، لأنه جمع ، وأفرد الضمير باعتبار اللفظ ﴿ ثم يجعله ركاما ﴾ أى متراكما يركب بعضه بعضا . والركم : جمع الشئ ، يقال : ركم الشئ يركمه ركما ، أى جمعه وألقى بعضه على بعض وارتكم الشئ وتراكم إذا اجتمع . والركمة : الطين المجموع ، والركام : الرمل المتراكب ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ الودق : المطر عند جمهور المفسرين ، ومنه قول الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها

وقال امرؤ القيس :

فدمعهما ودق وسح وديمة وسكب وتوكاف وتنهملان

يقال : ودقت السحاب فهي وادقة وودق المطر يدق ، أى قطر يقطر ، وقيل : إن الودق البرق ، ومنه قول الشاعر :

أثرن عجاجة وخرجن منها خروج الودق من خلل السحاب

والأول أولى . ومعنى ﴿ من خلاله ﴾ : من فتوقه التى هى مخارج القطر ، وجملة : ﴿ يخرج من خلاله ﴾ ، فى محل نصب على الحال ، لأن الرؤية هنا هى البصرية . وقرأ ابن عباس وابن مسعود والضحاك وأبو العالية : « من خلله » على الإفراد . وقد وقع الخلاف فى خلال : هل هو مفرد كحجاب ؟ أو جمع كجبال ؟ ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ المراد بقوله من سماء : من عال ، لأن السماء قد تطلق على جهة العلو ، ومعنى ﴿ من الجبال ﴾ : من قطع عظام تشبه الجبال ، ولفظ « فيها » فى محل نصب على الحال ، و« من » فى : ﴿ من جبال برد ﴾ للتبويض ، وهو مفعول ينزل . وقيل : إن المفعول محذوف ، والتقدير : ينزل من جبال فيها من برد بردا . وقيل : إن من فى : ﴿ من برد ﴾ زائدة ، والتقدير : ينزل من السماء من جبال فيها برد . وقيل : إن فى الكلام مضافا محذوفا ، أى ينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال من برد إلى الأرض . قال الأخفش : إن من فى : ﴿ من الجبال ﴾ وفى : ﴿ من برد ﴾ زائدة فى الموضعين ، والجبال والبرد فى موضع نصب ، أى ينزل من السماء بردا يكون كالجبال . والحاصل أن « من » فى : ﴿ من السماء ﴾ لابتداء الغاية بلا خلاف و« من » فى : ﴿ من جبال ﴾ فيها ثلاثة أوجه : الأول : لابتداء الغاية فتكون هى ومجرورها بدلا من الأولى بإعادة الخافض بدل اشتمال . الثانى : أنها للتبويض فتكون على هذا هى ومجرورها فى محل نصب على أنها مفعول الإنزال ، كأنه قال : وينزل بعض جبال . الثالث : أنها زائدة ، أى ينزل من السماء جبالا . وأما « من » فى ﴿ من برد ﴾ ففيها أربعة أوجه : الثلاثة المتقدمة . والرابع : أنها لبيان الجنس ، فيكون التقدير على هذا الوجه : وينزل من السماء بعض جبال التى هى البرد . قال الزجاج : معنى الآية : وينزل من السماء من جبال برد فيها كما تقول : هذا خاتم فى يدي من حديد ، أى خاتم حديد فى يدي ، لأنك إذا قلت : هذا خاتم من حديد وخاتم حديد كان المعنى واحدا ، انتهى . وعلى هذا يكون ﴿ من برد ﴾ فى موضع جر صفة لجبال كما كان من حديد صفة لخاتم ، ويكون مفعول ينزل ﴿ من جبال ﴾ ، ويلزم من كون الجبال بردا أن يكون المنزل بردا . وذكر أبو البقاء التقدير : شيئا من جبال ، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة ﴿ فيصيب به من يشاء ﴾ أى : يصيب بما ينزل من البرد من يشاء أن يصيبه من عباده ﴿ ويصرفه عمن يشاء ﴾ منهم ، أو يصيب به مال من يشاء ويصرفه عن مال من يشاء ، وقد تقدّم الكلام عن مثل هذا فى البقرة . ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ﴾ السنا : الضوء ، أى يكاد ضوء

البرق الذى فى السحاب يذهب بالأبصار من شدة برقه وزيادة لمعانه ، وهو كقوله : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ [البقرة : ٢٠] . قال الشماخ :

وما كادت إذا رفعت سناها
ليبصر ضوءها إلا البصير

وقال امرؤ القيس :

يضىء سناه ، أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المقتل

فالسنا بالقصر : ضوء البرق ، والمدّ : الرفعة ، كذا قال المبرد وغيره . وقرأ طلحة بن مصرف ويحيى بن وثاب : « سناء برقه » بالمدّ على المبالغة فى شدة الضوء والصفاء ، فأطلق عليه اسم الرفعة والشرف . وقرأ طلحة ويحيى أيضا بضم الباء من برقه وفتح الراء . قال أحمد بن يحيى ثعلب : وهى على هذه القراءة جمع برق . وقال النحاس : البرقة المقدار من البرق ، والبرقة الواحدة . وقرأ الجحدري وابن القعقاع : « يذهب » بضم الياء وكسر الهاء من الإذهاب . وقرأ الباقر : ﴿ سنا ﴾ بالقصر و ﴿ برقه ﴾ بفتح الباء وسكون الراء و ﴿ يذهب ﴾ بفتح الياء والهاء من الذهاب ، وخطأ قراءة الجحدري وابن القعقاع ، الأخفش وأبو حاتم . ومعنى ذهاب البرق بالأبصار : خطفه إياها من شدة الإضاءة وزيادة البريق . والباء فى : ﴿ بالأبصار ﴾ على قراءة الجمهور للإلصاق ، وعلى قراءة غيرهم زائدة .

﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ أى يعاقب بينهما . وقيل : يزيد فى أحدهما وينقص الآخر . وقيل : يقلبهما باختلاف ما يقدره فيهما من خير وشر ونفع وضر . وقيل : بالحرّ والبرد . وقيل : المراد بذلك : تغيير النهار بظلمة السحاب مرة وبضوء الشمس أخرى ، وتغيير الليل بظلمة السحاب تارة وبضوء القمر أخرى ، والإشارة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ إلى ما تقدّم ، ومعنى العبرة : الدلالة الواضحة التى يكون بها الاعتبار ، والمراد بأولى الأبصار : كل من له بصر يبصر به .

ثم ذكر سبحانه دليلا ثالثا من عجائب خلق الحيوان وبديع صنعته فقال : ﴿ واللّه خلق كلّ دابة من ماء ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى : « واللّه خالق كل دابة » وقرأ الباقر : ﴿ خلق ﴾ والمعنيان صحيحان . والدابة : كل ما دبّ على الأرض من الحيوان ، يقال : دبّ يدبّ فهو دابّ ، والهاء للمبالغة ، ومعنى ﴿ من ماء ﴾ من نقطة ، وهى المنى ، كذا قال الجمهور . وقال جماعة : إن المراد : الماء المعروف ، لأن آدم خلق من الماء والطين . وقيل : فى الآية تنزيل الغالب منزلة الكل على القول الأوّل ، لأن فى الحيوانات ما يتولد لا عن نقطة ، ويخرج من هذا العموم الملائكة فإنهم خلقوا من نور ، والجآن فإنهم خلقوا من نار . ثم فصل سبحانه أحوال كلّ دابة فقال : ﴿ فمنهم من يمشى على بطنه ﴾ وهى الحيات والحوت والدود ونحو ذلك ﴿ ومنهم من يمشى على رجلين ﴾ الإنسان والطير ﴿ ومنهم من يمشى على أربع ﴾ سائر الحيوانات . ولم يتعرّض لما يمشى على أكثر من أربع ؛ لقلته . وقيل : لأن المشى على أربع فقط

وإن كانت القوائم كثيرة . وقيل : لعدم الاعتداد بما يمشى على أكثر من أربع ، ولا وجه لهذا فإن المراد التنبيه على بديع الصنع وكمال القدرة ، فكيف يقال : لعدم الاعتداد بما يمشى على أكثر من أربع ؟ وقيل : ليس فى القرآن ما يدل على عدم المشى على أكثر من أربع ، لأنه لم ينف ذلك ولا جاء بما يقتضى الحصر ، وفى مصحف أبى : « ومنهم من يمشى على أكثر » فعم بهذه الزيادة جميع ما يمشى على أكثر من أربع كالسرطان والعناكب وكثير من خشاش الأرض ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ مما ذكره ها هنا وما لم يذكره كالجوامد مركبها وبسيطها ناميها وغير ناميها ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه شيء بل الكل من مخلوقاته داخل تحت قدرته سبحانه .

﴿ ولقد أنزلنا آيات مبينات ﴾ أى : القرآن ، فإنه قد اشتمل على بيان كل شيء وما فرطنا فى الكتاب من شيء ، وقد تقدّم بيان مثل هذا فى غير موضع ﴿ والله يهدى من يشاء ﴾ بتوفيقه للنظر الصحيح وإرشاده إلى التأمل الصادق ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ إلى طريق مستو لا عوج فيه ، فيتوصل بذلك إلى الخير التام وهو نعيم الجنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب ﴾ قال : هو مثل ضربه الله ، كرجل عطش فاشتدّ عطشه فرأى سرابا فحسبه ماء ، فطلبه فظن أنه قدر عليه حتى أتى ، فلما أتاه لم يجده شيئا ، وقبض عند ذلك ، يقول : الكافر كذلك السراب ، إذا أتاه الموت لم يجد عمله يعنى عنه شيئا ، ولا ينفعه إلا كما نفع السراب العطشان ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى ﴾ قال : يعنى بالظلمات : الأعمال ، وبالبحر اللجى : قلب الإنسان ﴿ يغشاه موج ﴾ يعنى بذلك : الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ بقية ﴾ بأرض مستوية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق السدى عن أبيه عن أصحاب النبى ﷺ قال : « إن الكفار يبعثون يوم القيامة وردا عطاشا فيقولون : أين الماء ؟ فيتمثل لهم السراب فيحسبونه ماء ، فينطلقون إليه فيجدون الله عنده فيوفيه حسابا والله سريع الحساب » وفى إسناده السدى عن أبيه ، وفيه مقال معروف . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة فى قوله : ﴿ كلّ قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ قال : الصلاة للإنسان والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ والظير صافات ﴾ قال : بسط أجنحتهن . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يكاد سنا برقه ﴾ يقول : ضوء برقه . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر عن ابن عباس قال : كل شيء يمشى على أربع إلا الإنسان . وأقول : هذه الطيور على اختلاف أنواعها تمشى على رجلين ، وهكذا غيرها ، كالنعامة فإنها تمشى على رجلين ، وليست من الطير ، فهذه الكلية المروية عنه رضى الله عنه لا تصح .

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ

بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُمرَّتْهُمْ لِيُخْرِجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَبَّسَ الْمَصِيرُ (٥٧) ﴿

شرح سبحانه في بيان أحوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم فقال : ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا﴾ وهؤلاء هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويطنون الكفر ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فإنهم كما حكى الله عنهم هاهنا ينسبون إلى أنفسهم الإيمان بالله وبالرسل والطاعة لله ولرسوله نسبة بمجرد اللسان ، لا عن اعتقاد صحيح ، ولهذا قال : ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ أى من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة ﴿من بعد ذلك﴾ أى من بعد ما صدر عنهم ما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان والطاعة ، ثم حكم عليهم سبحانه وتعالى بعدم ما صدر عنهم ما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان والطاعة ، ثم حكم عليهم سبحانه وتعالى بعدم الإيمان فقال : ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ أى ما أولئك القائلون هذه المقالة بالمؤمنين على الحقيقة ، فيشمل الحكم بنفى الإيمان جميع القائلين ، ويندرج تحتهم من تولى اندراجاً أولياً . وقيل : إن الإشارة بقوله : ﴿أولئك﴾ راجع إلى من تولى ، والأول أولى . والكلام مشتمل على حكيمين : الحكم الأول : على بعضهم بالتولى ، والحكم الثانى : على جميعهم بعدم الإيمان . وقيل : أراد بمن تولى : من تولى عن قبول حكمه ﷺ . وقيل : أراد بذلك رؤساء المنافقين ، وقيل : أراد بتولى هذا الفريق : رجوعهم إلى الباقيين ، ولا ينافى ما تحتمله هذه الآية باعتبار لفظها وورودها على سبب خاص كما سيأتى بيانه .

ثم وصف هؤلاء المنافقين بأن فريقاً منهم يعرضون عن إجابة الدعوة إلى الله وإلى رسوله فى

خصوصاتهم ، فقال : ﴿ وَإِذَا دَعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى ليحكم الرسول بينهم ، فالضمير راجع إليه ؛ لأنه المباشر للحكم وإن كان الحكم فى الحقيقة لله سبحانه ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ [التوبة : ٦٢] . و « إذا » فى قوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ هى الفجائية ، أى فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إلى الله والرسول . ثم ذكر سبحانه أن إعراضهم إنما هو إذا كان الحقّ عليهم ، وأما إذا كان لهم فإنهم يدعون لعلمهم بأن رسول الله ﷺ لا يحكم إلا بالحق فقال : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ قال الزجاج : الإذعان : الإسراع مع الطاعة ، يقال : أذعن لى بحقى ، أى طاعنى لما كنت ألتمس منه وصار يسرع إليه ، وبه قال مجاهد . وقال الأخفش وابن الأعرابى : مذعنين : مقرّين . وقال النقاش : مذعنين : خاضعين .

ثم قسم الأمر فى إعراضهم عن حكمته إذا كان الحقّ عليهم فقال : ﴿ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ وهذه الهمزة للتوبيخ والتقرّيع لهم ، والمرض : النفاق ، أى أكان هذا الإعراض منهم بسبب النفاق الكائن فى قلوبهم ﴿ أَمْ ارْتَابُوا ﴾ وشكوا فى أمر نبوتهم ﷺ وعدله فى الحكم ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ﴾ والحيف : الميل فى الحكم ، يقال : حاف فى قضيته ، أى جار فيما حكم به ، ثم أضرب عن هذه الأمور التى صدرها بالاستفهام الإنكارى فقال : ﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى ليس ذلك لشيء مما ذكر ، بل لظلمهم وعنادهم ؛ فإنه لو كان الإعراض لشيء مما ذكر لما أتوا إليه مذعنين إذا كان الحقّ لهم ، وفى هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضى العالم بحكم الله العادل فى حكمه ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء ، والحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم الله العارفين بالكتاب والسنة ، العادلين فى القضاء هو حكم بحكم الله وحكم رسوله ، فالداعى إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى الله وإلى رسوله ، أى إلى حكمهما . قال ابن خوزير منداد : واجب على كل من دعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق .

قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعى إلى الحاكم ، لأن الله سبحانه ذمّ من دعى إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأبجح الذمّ ، فقال : ﴿ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ الآية انتهى (١) ، فإن كان القاضى مقصرا لا يعلم بأحكام الكتاب والسنة ، ولا يعقل حجج الله ومعانى كلامه وكلام رسوله ، بل كان جاهلا جهلا بسيطا ، وهو من لا علم له بشيء من ذلك ، أو جهلا مركبا ، وهو من لا علم عنده بما ذكرنا ، ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين ، واطلع على شيء من علم الرأى ، فهذا فى الحقيقة جاهل ، وإن اعتقد أنه يعلم بشيء من العلم فاعتقاده باطل ؛ فمن كان من القضاة هكذا فلا تجب الإجابة إليه ؛ لأنه ليس ممن يعلم بحكم الله ورسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين إليه ، بل هو من قضاة الطاغوت وحكام الباطل ، فإنّ ما عرفه من علم الرأى إنما رخص فى العمل به للمجتهد الذى هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب والسنة ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتى بعده . وإذا تقرّر لديك هذا وفهمته حق فهمه

علمت أن التقليد والانتساب إلى عالم من العلماء دون غيره والتقيد بجميع ما جاء به من رواية ورأى ، وإهمال ما عداه من أعظم ما حدث فى هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة والفواقر الموحشة فإننا لله وإنا إليه راجعون . وقد أوضحنا هذا فى مؤلفنا الذى سميناه «القول المفيد فى حكم التقليد» وفى مؤلفنا الذى سميناه «أدب الطلب ومتهى الأرب» فمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التى طبقت الاقطار الإسلامية فليرجع إليهما .

ثم لما ذكر ما كان عليه أهل النفاق ، أتبع بما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله فقال : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قرأ الجمهور بنصب : ﴿قول﴾ على أنه خبر كان واسمها ﴿أن يقولوا﴾ . وقرأ على والحسن وابن أبى إسحاق برفع : «قول» على أنه الاسم وأن المصدرية وما فى حيزها الخبر ، وقد رجحت القراءة الأولى بما تقرّر عند النحاة من أنه إذا اجتمع معرفتان وكانت إحداهما أعرف جعلت التى هى أعرف اسما . وأما سيبويه فقد خير بين كلّ معرفتين ولم يفرق هذه التفرقة ، وقد قدّمنا الكلام على الدعوة إلى الله ورسوله للحكم بين المتخاصمين وذكرنا من تجب الإجابة إليه من القضاة ومن لا تجب ﴿أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ أى أن يقولوا هذا القول لا قولاً آخر ، وهذا وإن كان على طريقة الخبر فليس المراد به ذلك ، بل المراد به تعليم الأدب الشرعى عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر . والمعنى : أنه ينبغى للمؤمنين أن يكونوا هكذا بحيث إذا سمعوا الدعاء المذكور قابلوه بالطاعة والإذعان . قال مقاتل وغيره : يقولون سمعنا قول النبى ﷺ وأطعنا أمره ، وإن كان ذلك فيما يكرهونه ويضرهم ، ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله : ﴿وأولئك﴾ أى المؤمنون الذين قالوا هذا القول ﴿هم المفلحون﴾ أى الفائزون بخير الدنيا والآخرة .

ثم أردف الثناء عليهم بثناء آخر فقال : ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾ وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم إلى الدخول فى عدادهم والمتابعة لهم فى طاعة الله ورسوله والخشية من الله عزّ وجلّ والتقوى له . قرأ حفص : ﴿ويتقه﴾ بإسكان القاف على نية الجزم . وقرأ الباقر بكسرها ، لأن جزم هذا الفعل بحذف آخره ، وأسكن الهاء أبو عمرو وأبو بكر واختلس الكسرة يعقوب وقالون عن نافع والمثنى عن أبى عمرو وحفص وأشبع كسرة الهاء الباقر . قال ابن الأنبارى : وقراءة حفص هى على لغة من قال : لم أر زيدا ، ولم أشتّر طعاما ، يسقطون الياء للجزم ثم يسكنون الحرف الذى قبلها ، ومنه قول الشاعر :

قالت سليمي اشتر لنا دقيقا

وقول الآخر :

عجبت لمولود وليس له أب وذى ولد لم يلد له أبوان

وأصله يلد بكسر اللام وسكون الدال للحزم ، فلما سكن اللام التقى ساكنان ، فلو حرك الأول لرجع إلى ما وقع الفرار منه ، فحرك ثانيهما وهو الدال . ويمكن أن يقال : إنه حرك الأول على أصل الثناء الساكنين وبقي السكون على الدال لبيان ما عليه أهل هذه اللغة ولا يضر الرجوع إلى ما وقع الفرار منه ، فهذه الحركة غير تلك الحركة . والإشارة بقوله : ﴿ فأولئك هم الفاترون ﴾ إلى الموصوفين بما ذكر من الطاعة والخشية والتقوى ، أى هم الفاترون بالنعيم الدنيوى والأخروى لا من عداهم .

ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا فقال : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن ﴾ أى لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن ، و ﴿ جهد أيمانهم ﴾ منتصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف الناصب له ، أى أقسموا بالله يجهدون أيمانهم جهدا . ومعنى ﴿ جهد أيمانهم ﴾ : طاقة ما قدروا أن يحلفوا ، مأخوذ من قولهم : جهد نفسه : إذا بلغ طاقتها وأقصى وسعها . وقيل : هو منتصب على الحال ، والتقدير : مجتهدين فى أيمانهم ، كقولهم : افعل ذلك جهدا وطاقتك ، وقد خلط الرمخشى الوجهين فجعلهما واحدا . وجواب القسم قوله : ﴿ ليخرجن ﴾ ولما كانت مقاتلتهم هذه كاذبة وأيمانهم فاجرة ردّ الله عليهم ، فقال : ﴿ قل لا تقسموا ﴾ أى ردّ عليهم زاجرا لهم ، وقل لهم : لا تقسموا ، أى لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة والخروج إلى الجهاد إن أمرتم به ، وها هنا تمّ الكلام . ثم ابتدأ فقال : ﴿ طاعة معروفة ﴾ وارتفاع طاعة على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى طاعتهم طاعة معروفة بأنها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد ويجوز أن تكون طاعة مبتدأ ، لأنها قد خصصت بالصفة ، ويكون الخبر مقدرا ، أى طاعة معروفة أولى بكم من أيمانكم ، ويجوز أن ترتفع بفعل محذوف ، أى لتكن منكم طاعة أو لتوجد ، وفى هذا ضعف لأن الفعل لا يحذف إلا إذا تقدّم ما يشعر به . وقرأ زيد بن علىّ واليزيدى : « طاعة » بالنصب على المصدر لفعل محذوف ، أى أطيعوا طاعة ﴿ إن الله خير بما تعملون ﴾ من الأعمال وما تضمرونه من المخالفة لما تنطق به ألسنتكم ، وهذه الجملة تعليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق .

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يأمرهم بطاعة الله ورسوله فقال : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ طاعة ظاهرة وباطنة بخلوص اعتقاد وصحة نية ، وهذا التكرير منه تعالى لتأكيد وجوب الطاعة عليهم ، فإن قوله : ﴿ قل لا تقسموا طاعة معروفة ﴾ فى حكم الأمر بالطاعة . وقيل : إنهما مختلفان ، فالأول : نهى بطريق الردّ والتوبيخ . والثانى : أمر بطريق التكليف لهم والإيجاب عليهم ﴿ فإن تولوا ﴾ : خطاب للمأمورين ، وأصله : فإن تولوا ، فحذف إحدى التائين تخفيفا ، وفيه رجوع من الخطاب مع رسول الله ﷺ إلى الخطاب لهم لتأكيد الأمر عليهم والمبالغة فى العناية بهدايتهم إلى الطاعة والانقياد ، وجواب الشرط قوله : ﴿ فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ﴾ أى فاعلموا أنما على النبيص ﴿ ما حمل ﴾ مما أمر به من التبليغ وقد فعل ، ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ أى ما أمرتم به من الطاعة ، وهو وعيد لهم كأنه

قال لهم : فإن توليتم فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل ﴿ وإن تطيعوه ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ تهتدوا ﴾ إلى الحق وترشدوا إلى الخير وتفوزوا بالأجر ، وجملة : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ مقررّة لما قبلها ، واللام إما للعهد فيراد بالرسول نبينا ﷺ ، وإما للجنس فيراد كل رسول . والبلاغ المبين : التبليغ الواضح أو الموضح . قيل : يجوز أن يكون قوله : ﴿ فإن تولوا ﴾ ماضيا وتكون الواو لضمير الغائبين ، وتكون هذه الجملة الشرطية مما أمر به رسول الله ﷺ أن يقوله لهم ، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والأوّل أرجح . ويؤيده الخطاب في قوله : ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ وفي قوله : ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ ويؤيده أيضا قراءة البرزى : « فإن تولوا » بتشديد التاء وإن كانت ضعيفة لما فيها من الجمع بين ساكنين .

﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ هذه الجملة مقررّة لما قبلها من أن طاعتهم لرسول الله ﷺ سبب لهدايتهم ، وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم في الأرض لما استخلف الذين من قبلهم من الأمم ، وهو وعد يعم جميع الأمة . وقيل : هو خاص بالصحابة ، ولا وجه لذلك ، فإن الإيمان وعمل الصالحات لا يختص بهم ، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة ، ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله فقد أطاع الله ورسوله . واللام في ﴿ ليستخلفنهم في الأرض ﴾ جواب لقسم محذوف ، أو جواب للوعد بتنزيله منزلة القسم ، لأنه ناجز لا محالة ، ومعنى ﴿ ليستخلفنهم في الأرض ﴾ : ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك في مملوكاتهم ، وقد أبعد من قال : إنها مختصة بالخلفاء الأربعة ، أو بالمهاجرين ، أو بأن المراد بالأرض أرض مكة ، وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وظاهر قوله : ﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ كل من استخلفه الله في أرضه فلا يخص ذلك بنبي إسماعيل ولا أمة من الأمم دون غيرها . قرأ الجمهور : ﴿ كما استخلف ﴾ بفتح الفوقية على البناء للمفاعل . وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضل عن عاصم بضمها على البناء للمفعول ، ومحل الكاف النصب على المصدرية ، أى استخلفا كما استخلف ، وجملة : ﴿ وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ معطوفة على ﴿ ليستخلفنهم ﴾ داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب ، والمراد بالتمكين هنا : التثبيت والتقريب ، أى يجعله الله ثابتا مقررّا ويوسع لهم في البلاد ويظهر دينهم على جميع الأديان ، والمراد بالدين هنا : الإسلام ، كما في قوله : ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة : ٣] . ذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أوّلا ، وهو جعلهم ملوكا ، وذكر التمكين ثانيا فأفاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض والطروء ، بل على وجه الاستقرار والثبات ، بحيث يكون الملك لهم ولعقبهم من بعدهم .

وجملة : ﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾ معطوفة على التى قبلها . قرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب وأبو بكر : « ليبذلنهم » بالتخفيف من أبدل ، وهى قراءة الحسن واختارها

أبو حاتم . وقرأ الباقون بالتشديد من بدل واختارها أبو عبيد ، وهما لغتان ، وزيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، فقراءة التشديد أرجح من قراءة التخفيف . قال النحاس : وزعم أحمد بن يحيى ثعلب أن بين التخفيف والتثقيل فرقا ، وأنه يقال : بدلته ، أى غيرته ، وأبدلته : أزلته وجعلت غيره . قال النحاس ، وهذا القول صحيح . والمعنى : أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمنا ، ويذهب عنهم أسباب الخوف الذى كانوا فيه بحيث لا يخشون إلا الله سبحانه ولا يرجون غيره . وقد كان المسلمون قبل الهجرة وبعبدها بقليل فى خوف شديد من المشركين ، لا يخرجون إلا فى السلاح ولا يمسون ويصبحون إلا على ترقب لنزول المضرة بهم من الكفار ، ثم صاروا فى غاية الأمن والدعة وأذل الله لهم شياطين المشركين وفتح عليهم البلاد ، ومهد لهم فى الأرض ومكنهم منها ، فله الحمد . وجملة ﴿ يعبدوننى ﴾ فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة للثناء عليهم ، وجملة : ﴿ لا يشركون بى شيئا ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يعبدوننى ، أى يعبدوننى ، غير مشركين بى فى العبادة شيئا من الأشياء . وقيل : معناه : لا يراؤون بعبادتى أحدا . وقيل : معناه : لا يخافون غيرى ، وقيل : معناه : لا يحبون غيرى ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ أى من كفر هذه النعم بعد ذلك الوعد الصحيح ، أو من استمر على الكفر ، أو من كفر بعد إيمان ، فأولئك الكافرون هم الفاسقون؛ أى الكاملون فى الفسق . وهو الخروج عن الطاعة والطغيان فى الكفر .

وجملة : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ معطوفة على مقدر يدل عليه ما تقدم ، كأنه قيل لهم : فأمّنوا واعملوا صالحا وأقيموا الصلاة . وقيل : معطوف على ﴿ وأطيعوا الله ﴾ وقيل التقدير : فلا تكفروا وأقيموا الصلاة . وقد تقدم الكلام على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكرر الأمر بطاعة الرسول للتأكيد وخصه بالطاعة ، لأن طاعته طاعة لله ، ولم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم كما يشعر به الحذف على ما تقرر فى علم المعانى من أن مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم ﴿ لعلمكم ترحمون ﴾ أى افعلوا ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول راجين أن يرحمكم الله سبحانه ﴿ لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو حيوة ﴿ لا يحسبن ﴾ بالتحية بمعنى : لا تحسبن الذين كفروا ، وقرأ الباقون بالفوقية ، أى لا تحسبن يا محمد ، والموصول المفعول الأوّل ، ومعجزين الثانى ، لأن الحسبان يتعدى إلى مفعولين ، قاله الزجاج والفرأء وأبو على . وأما على القراءة الأولى ، فيكون المفعول الأوّل محذوفا ، أى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم . قال النحاس : وما علمت أحدا بصريا ولا كوفيا إلا وهو يخطئ قراءة حمزة ، و﴿ معجزين ﴾ معناه : فائتين . وقد تقدم تفسيره وتفسير ما بعده .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول ﴾ الآية قال : أناس من المنافقين أظهروا الإيمان والطاعة ، وهم فى ذلك يصدّون عن سبيل الله وطاعته وجهاد مع رسول الله ﷺ . وأخرجوا أيضا عن الحسن قال : إن الرجل كان

يكون بينه وبين الرجل خصومة أو منازعة على عهد رسول الله ﷺ ، فإذا دعى إلى النبي ﷺ وهو محقّ أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيفضى له بالحقّ ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبي ﷺ أعرض وقال : أنطلق إلى فلان ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ﴾ إلى قوله : ﴿ هم الظالمون ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « من كان بينه وبين أخيه شيء فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب ، فهو ظالم لا حقّ له » قال ابن كثير بعد أن ماق هذا المتن ما لفظه : وهذا حديث غريب وهو مرسل ^(١) . وقال ابن العري : هذا حديث باطل ، فأما قوله : فهو ظالم ، فكلّام صحيح . وأما قوله : فلا حقّ له ، فلا يصح . ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق انتهى . وأقول : أما كون الحديث مرسلًا فظاهر . وأما دعوى كونه باطلاً فمحتاجة إلى برهان ، فقد أخرجه ثلاثة من أئمة الحديث عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما ذكرنا ، ويبعد كل البعد أن يتفق عليهم ما هو باطل ، وإسناده عند ابن أبي حاتم هكذا : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا مبارك ، حدثنا الحسن فذكره . وليس في هؤلاء كذاب ولا وضاع . ويشهد له ما أخرجه الطبراني عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من دعى إلى سلطان فلم يجب ، فهو ظالم لاحق له » ^(٢) انتهى . ولا يخفّاك أن قضاة العدل وحكام الشرع الذين هم على الصفة التي قدّمنا لك قريباً هم سلاطين الدين المترجمون عن الكتاب والسنة ، المبينون للناس ما نزل إليهم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أتى قوم النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا ، فأنزل الله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في الآية قال : ذلك في شأن الجهاد ، قال : يأمرهم أن لا يحلفوا على شيء ﴿ طاعة معروفة ﴾ قال : أمرهم أن يكون منهم طاعة معروفة للنبي ﷺ من غير أن يقسموا . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد : ﴿ طاعة معروفة ﴾ يقول : قد عرفت طاعتهم ، أى إنكم تكذبون به . وأخرج مسلم والترمذى وغيرهما عن علقمة بن وائل الحضرمي عن أبيه قال : قدم زيد بن أسلم على رسول الله ﷺ فقال : أ رأيت إن كان علينا أمراء يأخذون منا الحق ولا يعطونا ؟ قال : « فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم » ^(٣) . وأخرج ابن جرير وابن قانع والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي عن سلمة بن يزيد الجعفي قال : قلت : يا رسول الله ... فذكر نحوه ^(٤) . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن الزبير عن جابر أنه سئل : إن كان على إمام فاجر فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا ؟ قال : قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم ، وعلى الإمام ما حمل وعليكم ما حملتم .

(١) ابن كثير ١١٦/٥ .

(٢) الطبراني (٦٩٣٩) وقال الهيثمي في المجمع ٢٠١/٤ : « فيه روح بن عطاء وثقه ابن عدى وضعفه الأئمة » .

(٣) مسلم في الإمامة (٤٩/١٨٤٦) والترمذى في الفتن (٢١٩٩) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » في رواية مسلم اسم الصحابي سلمة بن يزيد الجعفي ، والترمذى لم يسم أحداً .

(٤) الطبراني (٦٣٢٢) وقال الهيثمي في المجمع ٢٢٣/٥ : « فيه عبيد بن عبيدة ولم أعرفه وبقيّة رجاله ثقات » .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء في قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ الآية . قال : فينا نزلت ونحن في خوف شديد . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وعبادته وحده لا شريك له سرا ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموا المدينة ، فأمرهم الله بالقتال ، وكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح ، فغيروا بذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلاً من أصحابه قال : يا رسول الله ، أبدأ الدهر نحن خائفون هكذا ؟ ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لن تغيروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم محتبياً ليستخلفنهم في الأرض ﴾ إلى آخر الآية ، فأظهر الله نبيه ﷺ على جزيرة العرب ، فأسنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله قبض نبيه فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا وكفروا النعمة ، فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفع عنهم ، واتخذوا الحجر والشرط ، وغيروا فغير ما بهم . وأخرج ابن المنذر والطبراني في الأوسط ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، والضياء في المختارة عن أبي بن كعب . قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : أترون أنا نعيش حتى نبني آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ، فنزلت : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية (١) . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يَشْرَكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ قال : لا يخافون أحداً غيري . وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد مثله ، قال : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ : العاصون . وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية قال : كفر بهذه النعمة ، ليس الكفر بالله . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ معجزين في الأرض ﴾ قال : سابقين في الأرض .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن

(١) صححه الحاكم ٤٠١/٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الدلائل ٦/٣ ، ٧ ، وقال الهيثمي في المعجم ٨٦/٧ :

« رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات » .

يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرَ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر ما ذكره من دلائل التوحيد، رجع إلى ما كان فيه من الاستئذان فذكره هاهنا على وجه أخص فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ أَتَذْنِكُم الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ والخطاب للمؤمنين وتدخل المؤمنات فيه تغليبا كما في غيره من الخطابات . قال العلماء : هذه الآية خاصة ببعض الأوقات . واختلفوا في المراد بقوله : ﴿ لَيْسَ أَتَذْنِكُم ﴾ على أقوال : الأول أنها منسوخة ، قاله سعيد بن المسيب . وقال سعيد بن جبير : إن الأمر فيها للندب لا للوجوب . وقيل : كان ذلك واجبا حيث كانوا لا أبواب لهم ، ولو عاد الحال لعاد الوجوب ، حكاه المهدوي عن ابن عباس . وقيل : إن الأمر هاهنا للوجوب ، وإن الآية محكمة غير منسوخة ، وأن حكمها ثابت على الرجال والنساء . قال القرطبي : وهو قول أكثر أهل العلم ^(١) . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : إنها خاصة بالنساء . وقال ابن عمر : هي خاصة بالرجال دون النساء . والمراد بقوله : ﴿ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ : العبيد والإماء . والمراد بالذين لم يبلغوا الحلم : الصبيان ﴿ مِنْكُمْ ﴾ ، أى من الأحرار ، ومعنى ﴿ ثَلَاثَ مَرَاتٍ ﴾ : ثلاثة أوقات فى اليوم والليلة . وعبر بالمرات عن الأوقات لأن أصل وجوب الاستئذان هو بسبب مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا نفس الأوقات . وانتصاب ﴿ ثَلَاثَ مَرَاتٍ ﴾ على الظرفية الزمانية ، أى ثلاثة أوقات ، ثم فسر تلك الأوقات بقوله : ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ إلخ ، أو منصوب على المصدرية ، أى ثلاثة استئذانات ؛ ورجع هذا أبو حيان فقال : والظاهر من قوله : ﴿ ثَلَاثَ مَرَاتٍ ﴾ ثلاثة استئذانات ، لأنك إذا قلت : ضربتك ثلاث مرات لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات . ويرد بأن الظاهر هنا متروك للقرينة المذكورة ، وهو التفسير بالثلاثة الأوقات . قرأ الحسن وأبو عمرو فى رواية الحلم بسكون اللام وقرأ الباقون بضمها . قال الاخفش : الحلم من حلم الرجل بفتح اللام ، ومن الحلم حلم بضم اللام يحلم بكسر اللام .

ثم فسر سبحانه الثلاث المرات فقال : ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ وذلك لأنه وقت القيام عن المضاجع ، وطرح ثياب النوم ، وليس ثياب اليقظة ، وربما يبيت عريانا ، أو على حال لا يحب أن يراه غيره فيها ، ومحلہ النصب على أنه بدل من ثلاث ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على

أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هى من قبل ، وقوله : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ ﴾ معطوف على محل ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ و « من » فى : ﴿ مِنْ الظَّهْرِ ﴾ للبيان ، أو معنى فى ، أو بمعنى اللام . والمعنى : حين تضعون ثيابكم التى تلبسونها فى النهار من شدة حرّ الظهيرة وذلك عند انتصاف النهار ، فإنهم قد يتجرّدون عن الثياب لأجل القيلولة . ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث فقال : ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ وذلك لأنه وقت التجرد عن الثياب والخلوة بالأهل ، ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل فقال : ﴿ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ ﴾ برفع ثلاث ، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بالنصب على البدل من ثلاث مرات . قال ابن عطية : إنما يصح البدل بتقدير أوقات ثلاث عورات ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، ويحتمل أنه جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مبالغة ؛ ويجوز أن يكون ثلاث عورات بدلا من الأوقات المذكورة ، أى من قبل صلاة الفجر إلخ ؛ ويجوز أن تكون منصوبة بإضمار فعل ، أى اعنى ونحوه ، وأما الرفع فعلى أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هنّ ثلاث . قال أبو حاتم : النصب ضعيف مردود . وقال الفراء : الرفع أحبّ إلى ، قال : وإنما اخترت الرفع لأن المعنى : هذه الخصال ثلاث عورات . وقال الكسائى : إن ثلاث عورات مرتفعة بالابتداء والخبر ما بعدها . قال : والعورات : الساعات التى تكون فيها العورة . قال الزجاج : المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وعورات جمع عورة ، والعورة فى الأصل : الخلل ، ثم غلب فى الخلل الواقع فيما يهيم حفظه ويتعين ستره ، أى هى ثلاثة أوقات يختلّ فيها الستر . وقرأ الأعمش : « عورات » بفتح الواو ، وهى لغة هذيل وتميم فإنهم يفتحون عين فعلات سواء كان واوا أو ياء ، ومنه :

أخو بيضات رايح متأوب رفيق بمسح المنكيين سبوح

وقوله :

أبو بيضات رايح أو مفتدى عجلان ذا زاد وغير مزود

﴿ لَكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة ثلاث عورات ، أى كائنة لكم ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى ليس على المالك ولا على الصبيان جناح ، أى إثم فى الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر والاطلاع على العورات . ومعنى ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ : بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث ، وهى الأوقات المتخللة بين كلّ اثنين منها ، وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة للأمر بالاستئذان فى تلك الأحوال خاصة ، ويجوز أن تكون فى محل رفع صفة لثلاث عورات على قراءة الرفع فيها . قال أبو البقاء : ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى بعد استئذانهم فيهنّ ، ثم حذف حرف الجرّ والمجرور فبقى بعد استئذانهم ، ثم حذف المصدر وهو الاستئذان ، والضمير المتصل به . وردّ بأنه لا حاجة إلى هذا التقدير الذى ذكره ، بل المعنى : ليس عليكم جناح ولا عليهم ، أى العبيد والإماء والصبيان ،

جناح فى عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المذكورة ، وارتفاع ﴿ طَوَافُونَ ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم طَوَافُونَ عليكم ، والجملة مستأنفة مبنية للعذر المرحص فى ترك الاستئذان . قال الفراء : هذا كقولك فى الكلام : هم خدمكم وطَوَافُونَ عليكم ، وأجاز أيضا نصب طَوَافِينَ لأنه نكرة ، والمضمر فى ﴿ عليكم ﴾ معرفة ولا يجوز البصريون أن تكون حالا من المضمرين اللذين فى عليكم وفى بعضكم لاختلاف العاملين . ومعنى ﴿ طَوَافُونَ عليكم ﴾ أى يطوفون عليكم ، ومنه الحديث فى الهرة : « إنما هى من الطَوَافِينَ عليكم أو الطَوَافَات » ^(١) أى هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم فى غير هذه الأوقات بغير إذن ، ومعنى ﴿ بعضكم على بعض ﴾ : بعضكم يطوف أو طائف على بعض . وهذه الجملة بدل عما قبلها أو مؤكدة لها . والمعنى أن كلا منكم يطوف على صاحبه العبيد على الموالى والموالى على العبيد ، ومنه قول الشاعر :

ولما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

وقرأ ابن أبى عبله : « طَوَافِينَ » بالنصب على الحال كما تقدّم عن الفراء ، وإنما أباح سبحانه الدخول فى غير تلك الأوقات الثلاثة بغير استئذان ، لأنها كانت العادة أنهم لا يكشفون عوراتهم فى غيرها ، والإشارة بقوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ إلى مصدر الفعل الذى بعده ، كما فى سائر المواضع فى الكتاب العزيز ، أى مثل ذلك التبيين يبين الله لكم الآيات الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام ﴿ والله عليم حكيم ﴾ كثير العلم بالمعلومات وكثير الحكمة فى أفعاله .

﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ﴾ بين سبحانه هاهنا حكم الأطفال الأحرار إذا بلغوا الحلم بعد ما بين فيما مرّ حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم فى أنه لا جناح عليهم فى ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة فقال : ﴿ فليستأذنوا ﴾ يعنى الذين بلغوا الحلم إذا دخلوا عليكم ﴿ كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ والكاف نعت مصدر محذوف ، أى استئذنا كما استأذن الذين من قبلهم ، والموصول عبارة عن الذين قيل لهم : ﴿ لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا ﴾ الآية . والمعنى : أن هؤلاء الذين بلغوا الحلم يستأذنون فى جميع الأوقات كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء ، ثم كرّر ما تقدّم للتأكيد فقال : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ﴾ وقرأ الحسن : « الحلم » فحذف الضمة لثقلها . قال عطاء : واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا أحرارا كانوا أو عبيدا . وقال الزهرى : يستأذن الرجل على أمه ، وفى هذا المعنى نزلت هذه الآية . والمراد بالقواعد من النساء : العجائز

(١) مالك ٢٣/١ وأحمد ٢٩٦/٥ وأبو داود فى الطهارة (٧٥) والترمذى فى الطهارة (٩٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى ٥٥/١ وابن ماجه فى الطهارة (٣٦٧) والدارمى ١٨٨/١ ، كلهم عن كبشة بنت كعب بن مالك .

اللاتى قعدن عن الحيض والولد من الكبر ، واحدتها : قاعد بلا هاء ليدل حذفها على أنه قعود الكبر ، كما قالوا : امرأة حامل ليدل بحذف الهاء على أنه حمل حبل ، ويقال : قاعدة فى بيتها وحاملة على ظهرها . قال الزجاج : هن اللاتى قعدن عن التزويج ، وهو معنى قوله : ﴿ اللاتى لا يرجون نكاحا ﴾ أى لا يطمعن فيه لكبرهن . وقال أبو عبيدة : اللاتى قعدن عن الولد ، وليس هذا بمستقيم ؛ لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتع .

ثم ذكر سبحانه حكم القواعد فقال : ﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ﴾ أى الثياب التى تكون على ظاهر البدن كالجلابيب ونحوه ، لا الثياب التى على العورة الخاصة ، وإنما جاز لهن ذلك لانصراف الأنفس عنهن إذ لا رغبة للرجال فيهن ، فأباح الله سبحانه لهن ما لم يباح لغيرهن ، ثم استثنى حالة من حالتهن فقال : ﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ أى غير مظهرات للزينة التى أمرن بإخفائها فى قوله : ﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ والمعنى : من غير أن يردن بوضع الجلابيب إظهار زينتهن ولا متعرضات بالتزين لينظر إليهن الرجال . والتبرج : التكشف والظهور للعيون ، ومنه ﴿ بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] . وبروج السماء ، ومنه قولهم : سفينة بارجة ، أى لا غطاء عليها ﴿ وأن يستعففن خير لهن ﴾ أى وأن يتركن وضع الثياب فهو خير لهن من وضعها . وقرأ عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وابن عباس : « أن يضعن من ثيابهن » بزيادة من ، وقرأ ابن مسعود : « وأن يعففن » بغير سين ﴿ والله سميع عليم ﴾ كثير السماع والعلم أو بليغهما .

﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ اختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ؟ قال بالأول جماعة من العلماء ، وبالثانى جماعة . قيل : إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم ، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا ، فكانوا يتحرجون من ذلك وقالوا : لا ندخلها وهم غيب ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم ؛ فمعنى الآية : نفى الحرج عن الزمنى فى أكلهم من بيوت أقاربهم أو بيوت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو . قال النحاس : وهذا القول من أجل ما روى فى الآية لما فيه من الصحابة والتابعين من التوقيف . وقيل : إن هؤلاء المذكورين كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء حذرا من استقذارهم إياهم وخوفا من تأذيتهم بأفعالهم فنزلت . وقيل : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط فى التكليف به القدرة الكاملة على المشى على وجه يتعذر الإتيان به مع العرج ، وعن المريض فيما يؤثر المرض فى إسقاطه . وقيل : المراد بهذا الحرج المرفوع عن هؤلاء هو : الحرج فى الغزو ، أى لا حرج على هؤلاء فى تأخيرهم عن الغزو . وقيل : كان الرجل إذا أدخل أحدا من هؤلاء الزمنى إلى بيته فلم يجد فيه شيئا يطعمهم إياه ذهب بهم إلى بيوت قرابته ، فيتخرج الزمنى من ذلك فنزلت . ومعنى قوله : ﴿ ولا على أنفسكم ﴾ : عليكم وعلى من يماثلكم من المؤمنين ﴿ أن تأكلوا ﴾ أنتم ومن معكم ، وهذا ابتداء كلام ، أى ولا عليكم أيها الناس . والحاصل أن رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض إن كان باعتبار

مؤاكلة الأصحاء ، أو دخول بيوتهم فيكون ﴿ ولا على أنفسكم ﴾ متصلا بما قبله ، وإن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكاليف التى يشترط فيها وجود البصر وعدم العرج وعدم المرض ، فقلوه : ﴿ ولا على أنفسكم ﴾ ابتداء كلام غير متصل بما قبله .

ومعنى ﴿ من بيوتكم ﴾ : البيوت التى فيها متاعهم وأهلهم فيدخل بيوت الأولاد ، كذا قال المفسرون ، لأنها داخلة فى بيوتهم لكون بيت ابن الرجل بيته ، فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد وذكر بيوت الآباء وبيوت الأمهات ومن بعدهم . قال النحاس : وعارض بعضهم هذا فقال : هذا تحكم على كتاب الله سبحانه بل الأولى فى الظاهر أن يكون الابن مخالفا لهؤلاء . ويجاب عن هذه المعارضة بأن رتبة الأولاد بالنسبة إلى الآباء لاتنقص عن رتبة الآباء بالنسبة إلى الأولاد ، بل للآباء مزيد خصوصية فى أموال الأولاد لحديث : « أنت ومالك لأبيك » ^(١) وحديث : « ولد الرجل من كسبه » ^(٢) ثم قد ذكر الله سبحانه هاهنا بيوت الإخوة والأخوات ، بل بيوت الأعمام والعلمات ، بل بيوت الأخوال والخالات ، فكيف ينفى سبحانه الحرج عن الأكل من بيوت هؤلاء ، ولا ينفيه عن بيوت الأولاد ؟ وقد قيد بعض العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم . وقال آخرون : لا يشترط الإذن . قيل : وهذا إذا كان الطعام مبدولا ، فإن كان محرزا دونهم لم يجز لهم أكله . ثم قال سبحانه : ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ أى البيوت التى تملكون التصرف فيها بإذن أربابها ، وذلك كالوكلاء والعبيد والخزّان ، فإنهم يملكون التصرف فى بيوت من أذن لهم بدخول بيته وإعطائهم مفاتحه . وقيل : المراد بها : بيوت الممالك . قرأ الجمهور : ﴿ ملكتم ﴾ بفتح الميم وتخفيف اللام . وقرأ سعيد بن جبير بضم الميم وكسر اللام مع تشديدها . وقرأ أيضا : « مفاتيحه » بياء بين التاء والحاء . وقرأ قتادة : ﴿ مفاتحه ﴾ على الإفراد ، والمفاتيح جمع مفتاح ، والمفاتيح جمع مفتاح ﴿ أو صديقكم ﴾ أى لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينه قرابة ، فإن الصديق فى الغالب يسمح لصديقه بذلك وتطيب به نفسه ، والصديق يطلق على الواحد والجمع ، ومنه قول جرير :

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنا بأسهم أعداء وهنّ صديق

ومثله العدو والخليط والقطين والعشير ، ثم قال سبحانه : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ جميعاً أو أشتاتا ﴿ انتصاب ﴾ جميعاً و ﴿ أشتاتا ﴾ على الحال . والأشتات جمع شت ، والشت المصدر : بمعنى التفرق ، يقال : شت القوم ، أى تفرقوا ، وهذه الجملة كلام مستأنف مشتمل على بيان حكم آخر من جنس ما قبله ، أى ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم مجتمعين أو متفرقين ، وقد كان بعض العرب يتحرّج أن يأكل وحده حتى يجد له

(١) أحمد ٢٠٤/٢٠ وابن ماجه فى التجارات (٢٢٩٢) كلاهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) أحمد ١٧٣/٦ وأبو داود فى البيوع (٣٥٢٨) والترمذى فى الأحكام (١٣٥٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والسائى ٢٤١/٧ وابن ماجه فى التجارات (٢٢٩٠) والدارمى ٢٤٧/٢ ، كلهم عن عمارة بن عمير عن عمته عن عائشة رضى الله عنها .

أكيلا يؤاكله فيأكل معه ، وبعض العرب كان لا يأكل إلا مع ضيف ، ومنه قول حاتم :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلا ، فإنى لست آكله وحدى

﴿ فإذا دخلتم بيوتا ﴾ هذا شروع فى بيان أدب آخر أدب به عباده ، أى إذا دخلتم بيوتا غير البيوت التى تقدّم ذكرها ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ أى على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم . وقيل : المراد البيوت المذكورة سابقا . وعلى القول الأوّل ، فقال الحسن والنخعى : هى المساجد ، والمراد : سلموا على من فيها من صنفكم ، فإن لم يكن فى المساجد أحد ، فقيل : يقول : السلام على رسول الله . وقيل : يقول : السلام عليكم مريدا للملائكة . وقيل : يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقال بالقول الثانى ، أعنى أنها البيوت المذكورة سابقا ، جماعة من الصحابة والتابعين . وقيل : المراد بالبيوت هنا : هى كلّ البيوت المسكونة وغيرها فيسلم على أهل المسكونة ، وأما غير المسكونة فيسلم على نفسه . قال ابن العربى : القول بالعموم فى البيوت هو الصحيح ، وانتصاب ﴿ تحية ﴾ على المصدرية ، لأن قوله : ﴿ فسلموا ﴾ معناه : فحيوا ، أى تحية ثابتة ﴿ من عند الله ﴾ أى إن الله حياكم بها . وقال الفراء : أى إن الله أمركم أن تفعلوها طاعة له . ثم وصف هذه التحية فقال : ﴿ مباركة ﴾ أى كثيرة البركة والخير دائمتهما ﴿ طيبة ﴾ أى تطيب بها نفس المستمع . وقيل : حسنة جميلة . وقال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك طيب لما فيه من الأجر والثواب ، ثم كرّر سبحانه فقال : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ تأكيدا لما سبق . وقد قدّسنا أن الإشارة بذلك إلى مصدر الفعل ﴿ لعلمكم تعقلون ﴾ تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات الله سبحانه وفهم معانيها .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : بلغنا أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرشدة صنعا للنبي ﷺ طعاما ، فقالت أسماء : يا رسول الله ، ما أقبح هذا ! إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما فى ثوب واحد غلامهما بغير إذن ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ يأيتها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ يعنى العبيد والإماء ﴿ والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴾ قال : من أحراركم من الرجال والنساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى هذه الآية قال : كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يعجبهم أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ، ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمرؤا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن . وأخرج ابن مردويه عن ثعلبة القرظى عن عبد الله بن سويد قال : سألت رسول الله ﷺ عن العورات الثلاثة ، فقال : « إذا أنا وضعت ثيابى بعد الظهر لم يلج على أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم ولا أحد لم يبلغ الحلم من الأحرار إلا بإذن ، وإذا وضعت ثيابى بعد صلاة العشاء . ومن قبل صلاة الصبح » . وأخرجه عبد بن حميد والبخارى فى الأدب عن عبد الله بن سويد من قوله . وأخرج نحوه أيضا ابن سعد عن سويد بن النعمان .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : إنه لم يؤمن بها أكثر الناس : يعنى آية الإذن ، وإنى لأمر جاريتي هذه ، لجارية قصيرة قائمة على رأسه أن تستأذن على^(١) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : ترك الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهنَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، والآية التى فى سورة النساء : ﴿ وَإِذَا حضرَ القسمة ﴾ الآية [النساء : ٨] ، والآية التى فى الحجرات : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي فى السنن عنه أيضا فى الآية قال : إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا يدخل عليه صبى ولا خادم إلا يأذنه حتى يصلى الغداة ، وإذا خلا بأهله عند الظهر فمثل ذلك ، ورخص لهم فى الدخول فيما بين ذلك بغير إذن ، وهو قوله : ﴿ ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ فأما من بلغ الحلم ، فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال ، وهو قوله : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ . وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي فى السنن بسند صحيح من طريق عكرمة عنه أيضا ؛ أن رجلا سأله عن الاستئذان فى الثلاث العورات التى أمر الله بها فى القرآن ، فقال ابن عباس : إن الله ستر يحب السر . وكان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجاب فى بيوتهم ، فرمى فجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيما فى حجره وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى الله ، ثم جاء الله بعد بالستور ، فبسط عليهم فى الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحجاب ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به .

وأخرج ابن أبي شيبة ، والبخارى فى الأدب ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر فى قوله : ﴿ لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ قال : هى على الذكور دون الإناث ، ولا وجه لهذا التخصيص ، فالاطلاع على العورات فى هذه الأوقات كما يكرهه الإنسان من الذكور يكرهه من الإناث . وأخرج ابن مردويه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن بعض أزواج النبی ﷺ فى الآية قالت : نزلت فى النساء أن يستأذن علينا . وأخرج الحاكم وصححه عن على فى الآية قال : النساء فإن الرجال يستأذنون . وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبى عبد الرحمن السلمى فى هذه الآية قال : هى فى النساء خاصة ، الرجال يستأذنون على كل حال بالليل والنهار . وأخرج الفريابي عن موسى بن أبى عائشة قال : سألت الشعبي عن هذه الآية أمسوخة هى ؟ قال : لا . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخارى فى الأدب ، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عطاء ؛ أنه سأل ابن عباس أأستأذن على أختي ؟ قال : نعم ، قلت : إنها فى حجرى وإنى أنفق عليها وإنها معى فى البيت أأستأذن عليها ؟ قال : نعم ، إن الله يقول : ﴿ لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾

(١) أبو داود فى الأدب (٥١٩١) والبيهقي ٩٧/٧ .

الآية ، فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا فى هؤلاء العورات الثلاث ، قال : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ فالإذن واجب على كل خلق الله أجمعين . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير ، والبيهقى فى سنته عن ابن مسعود قال : عليكم إذن على أمهاتكم . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخارى فى الأدب عنه قال : يستأذن الرجل على أبيه وأمه وأخيه وأخته . وأخرج ابن أبى شيبه ، والبخارى فى الأدب ، عن جابر نحوه . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى السنن عن عطاء بن يسار أن رجلا قال : يا رسول الله ، أأستأذن على أُمى ؟ قال : « نعم » ، قال : إني معها فى البيت ، قال « استأذن عليها » ، قال : إني خادمها فأستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : « أحب أن تراها عريانة ؟ » قال : لا ، قال : « فاستأذن عليها » ^(١) وهو مرسل . وأخرج ابن أبى شيبه نحوه عن زيد بن أسلم ؛ أن رجلا سأل النبي ﷺ وهو أيضا مرسل .

وأخرج أبو داود ، والبيهقى فى السنن عن ابن عباس : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ الآية ، فنسخ واستثنى من ذلك ﴿ والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا ﴾ الآية ^(٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى السنن عنه قال : هى المرأة لا جناح عليها أن تجلس فى بيتها بدرع وخمار وتضع عليها الجلباب ما لم تتبرج بما يكرهه الله ، وهو قوله : ﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ﴾ . وأخرج أبو عبيدة فى فضائله ، وابن المنذر ، وابن الأثير فى المصاحف ، والبيهقى عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ : « أن يضعن من ثيابهن » ويقول : هو الجلباب . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عمر فى الآية قال : تضع الجلباب وأخرج عبد الرزاق والفرىابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والبيهقى فى السنن عن ابن مسعود : ﴿ أن يضعن ثيابهن ﴾ قال : الجلباب والرداء .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : ﴿ يأيتها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [النساء : ٢٩] . قالت الأنصار : ما بالمدينة مال أعز من الطعام كانوا يتحرّجون أن يأكلوا مع الأعمى يقولون : إنه لا يبصر موضع الطعام ، وكانوا يتحرّجون الأكل مع الأعرج يقولون : الصحيح يسقه إلى المكان ولا يستطيع أن يراحم ، ويتحرّجون الأكل مع المريض يقولون : لا يستطيع أن يأكل شل الصحيح ، وكانوا يتحرّجون أن يأكلوا فى بيوت أقاربهم ، فنزلت : ﴿ ليس على الأعمى ﴾ يعنى فى الأكل مع الأعمى . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مقسم نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن مجاهد قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه أو بيت عمه أو بيت عمته أو بيت خاله أو بيت

(٢) أبو داود فى اللباس (٤١١١) والبيهقى ٩٣/٧ .

(١) البيهقى ٩٧/٧ .

حالته ، فكان الزمنى يتحرّجون من ذلك يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم^(١) . وأخرج البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن النجار عن عائشة قالت : كان المسلمون يرغبون في النفي مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتيحهم إلى أمنائهم ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون : إنه لا يحلّ لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا من غير طيب نفس ، وإنما نحن زمنى ، فأنزل الله : ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا ﴾ إلى قوله : ﴿ أو ما ملكتم مفاتيحه ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [النساء : ٢٦] قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل الأموال فلا يحلّ لأحد منا أن يأكل عند أحد فكفّ الناس عن ذلك ، فأنزل الله : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ إلى قوله : ﴿ أو ما ملكتم مفاتيحه ﴾ وهو الرجل يوكل الرجل بضيعة ، والذي رخص الله أن يأكل من ذلك الطعام والتمر ويشرب اللبن ، وكانوا أيضا يتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم فقال : ﴿ ليس عليكم أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض ولا أعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، فنزلت رخصة في مؤاكلتهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود في مراسيله ، وابن جرير والبيهقى عن الزهري أنه سئل عن قوله : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ ما بال الأعمى والأعرج والمريض ذكروا هنا ؟ فقال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زناهم ، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم يقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا ، وكانوا يتحرّجون من ذلك يقولون : لا ندخلها وهم غيب ، فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم^(٢) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان هذا الحى من بنى كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهلية ، حتى إن كان الرجل يسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل الله : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا ﴾^(٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة وأبي صالح قالا : كانت الانتصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم ، فنزلت رخصة لهم . وأخرج الثعلبي عن ابن عباس في الآية ، قال : خرج الحارث غازيا مع رسول الله ﷺ وخلف على أهله خالد بن يزيد ، فخرج أن يأكل من طعامه ، وكان مجهودا فنزلت . وأخرج عبد الرزاق

(١) ابن جرير ١٢٩/١٨ والبيهقى ٢٧٥/٧ .

(٢) أبو داود في المراسيل (٤٥٩) وقال المحقق : « رجاله ثقات ، رجال الصحيح غير محمد بن ثور الصنعاني وهو ثقة » . وابن جرير ١٢٩/١٨ والبيهقى ٢٧٥/٧ .

(٣) ابن جرير ١٣١/١٨ .

وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقَكُمْ ﴾ قال : إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرتة ، ثم أكلت من طعامه بغير إذنه لم يكن بذلك بأس . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقَكُمْ ﴾ قال : هذا شيء قد انقطع ، إنما كان هذا في أوله ولم يكن لهم أبواب ، وكانت الستور مرخاة ، فرمى دخل الرجل البيت وليس فيه أحد ، فرمى وجد الطعام وهو جائع فسوّغ الله أن يأكله . وقال : ذهب ذلك ، اليوم البيوت فيها أهلها ، فإذا خرجوا أغلقوا فقد ذهب ذلك .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ يقول : إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أنفسكم ﴿ تحية من عند الله ﴾ وهو السلام ، لأنه اسم الله وهو تحية أهل الجنة . وأخرج البخاري وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله ﴿ مباركة طيبة ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ قال : هو المسجد إذا دخلته فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وأخرج ابن أبي شيبة ، والبخاري في الأدب عن ابن عمر قال : إذا دخل البيت غير المسكون أو المسجد فليقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنَهُ إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦٢) لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فيحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (٦٣) ألا إن لله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم ﴾ (٦٤)

جملة : ﴿ إنما المؤمنون ﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدمها من الأحكام ، و﴿ إنما ﴾ من صيغ الحصر . والمعنى : لا يتم إيمان ولا يكمل حتى يكون ﴿ بالله ورسوله ﴾ . وجملة : ﴿ وإذا كانوا معه على أمر جامع ﴾ معطوفة على آمنوا داخله معه في حيز الصلة ، أى إذا كانوا مع رسول الله على أمر جامع ، أى على أمر طاعة يجتمعون عليها ، نحو الجمعة والنحر والفطر والجهاد وأشياء ذلك ، وسمى الأمر جامعا مبالغة ﴿ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ﴾ قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال النبي ﷺ حيث يراه ، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن يشاء

منهم . قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده . قال الزجاج : أعلم الله أن المؤمنين إذا كانوا مع نبيه فيما يحتاج فيه إلى الجماعة لم يذهبوا حتى يستأذنه ، وكذلك ينبغي أن يكونوا مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه في جمع من جموعهم إلا بإذنه ، وللإمام أن يأذن وله أن لا يأذن على ما يرى لقوله تعالى : ﴿ فَأَذْنِ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ وقرأ اليماني : « على أمر جميع » . والحاصل أن الأمر الجامع أو الجميع هو الذي يعم نفعه أو ضرره ، وهو الأمر الجليل الذي يحتاج إلى اجتماع أهل الرأي والتجارب . قال العلماء : كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذنه . ثم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فيبين سبحانه أن المستأذنين : هم المؤمنون بالله ورسوله كما حكم أولاً بأن المؤمنين الكاملين الإيمان : هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان ﴿ فإذا استأذنتك لبعض شأنهم ﴾ أى إذا استأذن المؤمنون رسول الله ﷺ لبعض الأمور التى تهمهم فإنه يأذن لمن شاء منهم ويمنع من شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التى يراها رسول الله ﷺ ، ثم أرشده الله سبحانه إلى الاستغفار لهم ، وفيه إشارة إلى أن الاستئذان إن كان لعذر مسوغ ، فلا يخلو عن شائبة تأثير أمر الدنيا على الآخرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة بالغ فيهما إلى الغاية التى ليس وراءها غاية .

﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ﴾ وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، أى لا تجعلوا دعوته إياكم كالدعاء من بعضكم لبعض فى التساهل فى بعض الأحوال عن الإجابة أو الرجوع بغير استئذان أو رفع الصوت . وقال سعيد بن جبير ومجاهد : المعنى : قولوا : يا رسول الله ، فى رفق ولين . ولا تقولوا : يا محمد ، بتجهم . وقال قتادة : أمرهم أن يشرّفوه ويفخّموه . وقيل : المعنى : لا تتعرضوا لدعاء الرسول عليكم بإسقاطه ، فإن دعوته موجبة ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ﴾ التسلل : الخروج فى خفية ، يقال : تسلل فلان من بين أصحابه : إذا خرج من بينهم ، واللواذ من الملاوذة ، وهو : أن تستتر بشيء مخافة من يراك ، وأصله أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا ، واللوذ : ما يطيف بالجليل ، وقيل : اللواذ : الزوغان من شيء إلى شيء فى خفية . وانتصاب ﴿ لواذا ﴾ على الحال ، أى متلاوذين يلوذ بعضهم ببعض وينضم إليه . وقيل : هو منتصب على المصدرية لفعل مضمر هو الحال فى الحقيقة ، أى يلوذون لواذاً . وقرأ زيد بن قطيب : « لواذا » بفتح اللام . وفى الآية بيان ما كان يقع من المنافقين ، فإنهم كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين ينضم بعضهم إلى بعض استتاراً من رسول الله ﷺ وقد كان يوم الجمعة أثقل يوم على المنافقين لما يرون من الاجتماع للصلاة والخطبة فكانوا يفرّون عن الحضور ويتسللون فى خفية ويستتر بعضهم ببعض وينضم إليه . وقيل : اللواذ : الفرار من الجهاد وبه قال الحسن ، ومنه قول حسان :

وقريش تلوذ منا لواذاً لم تحافظ وحفّ منها الخلو

﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى يخالفون أمر النبي ﷺ بترك العمل بمقتضاء وعدى فعل المخالفة بعن مع كونه متعدياً بنفسه لتضمينه معنى الإعراض أو الصد . وقيل : الضمير لله سبحانه لأنه الأمر بالحقيقة ، و﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ مفعول يحذر ، وفاعله الموصول . والمعنى : فليحذر المخالفون عن أمر الله أو أمر رسوله أو أمرهما جميعاً إصابة فتنة لهم ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أى فى الآخرة ؛ كما أن الفتنة التى حذرهم من إصابتها لهم هى فى الدنيا ، وكلمة « أو » لمنع الخلوة . قال القرطبي : احتج الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية ، ووجه ذلك أن الله سبحانه قد حذر من مخالفة أمره ، وتوعد بالعقاب عليها بقوله : ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ الآية ، فيجب امتثال أمره وتحرم مخالفته ، والفتنة هنا غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن . وقيل : هى القتل . وقيل : الزلازل . وقيل : تسلط سلطان جائر عليهم . وقيل : الطبع على قلوبهم . قال أبو عبيدة والأخفش : « عن » فى هذا الموضع زائدة . وقال الخليل وسيبويه : ليست بزائدة ، بل هى بمعنى بعد ، كقوله : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ [الكهف : ٥٠] . أى بعد أمر ربه ، والأولى ما ذكرناه من التضمن .

﴿ ألا إن لله ما فى السموات والأرض ﴾ من المخلوقات بأسرها ، فهى ملكه ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أيها العباد من الأحوال التى أنتم عليها فيجازيكم بحسب ذلك ، ويعلم هاهنا بمعنى علم ﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ معطوف على ما أنتم عليه ، أى يعلم ما أنتم عليه ويعلم يوم يرجعون إليه فيجازيكم فيه بما عملتم . وتعليق علمه سبحانه بيوم يرجعون لا بنفس رجوعهم لزيادة تحقيق علمه ، لأن العلم بوقت وقوع الشيء يستلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ أى يخبرهم بما عملوا من الأعمال التى من جملتها مخالفة الأمر ، والظاهر من السياق أن هذا الوعيد للمنافقين ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ لا يخفى عليه شىء من أعمالهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظى قالاً : لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بجميع الأسياك من رومة بئر بالمدينة ، قائدها أبو سفيان ، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنقمة إلى جانب أحد ، وجاء رسول الله ﷺ الخبر ، ف ضرب الخندق على المدينة وعمل فيه المسلمون ، وأبطأ رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ، فيستلون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابه النابئة من الحاجة التى لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه فى اللجوء لحاجته فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع ، فأنزل الله فى أولئك : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ﴾ الآية (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبيرة فى الآية قال : هى فى الجهاد والجمعة والعديد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ على أمر جامع ﴾ قال : من طاعة الله عام .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عنه في قوله : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول ﴿ الآية قال : يعنى كدعاء أحدكم إذا دعا أخاه باسمه ، ولكن وقروه وقولوا له : يا رسول الله ، يا نبي الله . وأخرج عبد الغنى بن سعيد في تفسيره ، وأبو نعيم في الدلائل عنه أيضا في الآية قال : لا تصيحوا به من بعيد : يا أبا القاسم ، ولكن كما قال الله في الحجرات : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴿ [الحجرات : ٣] . وأخرج أبو داود في مراسيله عن مقاتل ، قال : كان لا يخرج أحد لرعاف أو إحداث حتى يستأذن النبي ﷺ يشير إليه بأصبعه التي تلى الإيهام ، فيأذن له النبي ﷺ يشير إليه بيده ، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد ، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج . فانزل الله : ﴿ الذين يتسللون منكم لواذا ﴿ الآية (١) . وأخرج أبو عبيد في فضائله ، والطبراني ، قال السيوطي : بسند حسن ، عن عقبة بن عامر قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية في خاتمة سورة النور وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه يقول : بكل شيء بصير (٢) .

(١) أبو داود في المراسيل (٦٢) وقال المحقق : « رجاله ثقات » .

(٢) الطبراني ٢٨٢/١٧ (٧٧٦) ، وقال الهيثمي في المجمع ٨٧/٧ : « هكذا وقع فإن كانت قراءة شاذة وإلا فالتلاوة : ﴿ بكل شيء عليم ﴾ وفيه ابن لهيعة وهو سيئ الحفظ رفيه ضعف وبقيه رجاله ثقات » .